أجاثا كريستي

الجنون القاتل

دار النجمة للنشر والتوزيع

الجنون القاتل

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

الجنون القاتل

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

إنكلترا، ها هو ذا يعود إليها بعد عدّة أعوام، فهل سيُعجب بها؟ سأل لوك فيتز ويليام نفسَه هذا السؤال الذي كان يدور في ذهنه طَوال مدّة الانتظار التي قضاها في الجمرك.

إذا ذهب المرء إلى إنكلترا لقضاء إجازته فإنها تعني نقوداً تُبعثَر ذات اليمين وذات الشمال وزيارة الأصدقاء الذين غاب عنهم وأصدقاء آخَرين جاؤوا إلى إنكلترا لقضاء إجازاتهم، كما تعني جواً بارداً لا يأبه بشيء، فيقول لسان حال المرء: حسناً، لن يطول الأمر، ومن الأفضل أن أستمتع بوقتي؛ فقريباً سأعود من حيث أتيت.

ولكن الأمر في هذه المرّة يختلف عن ذلك لأنها لا توجد عودة؛ لن يعود إلى الليالي الحارّة والشمس الساطعة والزرع الذي اشتُهرت به المناطق الحارة، ولن يقضي الليالي الطويلة وحيداً يقرأ ثم يعيد قراءة صحيفة التايمز. ها هو ذا قد بلغ سن التقاعد وسيتقاضى راتباً يضيفه إلى دخل خاص ضئيل. لقد أصبح سيداً عاطلاً، فماذا سيصنع بنفسه؟

كانت إنكلترا في يوم من أيام شهر حزيران (يونيو) والسماء قد حجبتها الغيوم والرياح قارصة كأنها لا ترحّب بالقادم، وقد

علت وجوهَ كثير من الناس غبرةٌ من السماء المكفهرّة وارتسم عليها القلق والاهتمام، أما المنازل فهي صغيرة متناثرة في كل مكان كأنها العشب الكثيف الجاف أو أقفاص الدجاج الكبيرة قد انتشرت في جميع البقاع.

وبذل لوك جهداً كي يحوّل نظره بعيداً عن نافذة القطار الذي كان يستقلّه، ثم نظر إلى الصحف التي اشتراها منذ وقت قصير، وهي صحيفة التايمز وصحيفة الديلي كلاريون ومجلّة بنش، وبدأ بصحيفة الديلي كلاريون التي كانت لا تتضمّن إلا أنباء السباق في أبسوم، فقال في نفسه: من المؤسف عدم وصولي إلى هنا أمس! أنا لم أشهد سباق الدربي منذ أن كنت في التاسعة عشرة من عمري.

وكان لوك قد راهن على أحد الخيول في النادي فبدأ في البحث في صحيفة الكلاريون ليعرف ما يقوله مراسلها عن مدى قدرة ذلك الجواد على الفوز، فإذا به يجد المراسل وقد أظهر احتقاره لذلك الجواد في العبارة الآتية: «أما دون ذلك من الخيل مثل جوجوب الثاني وماركس مايل وسانتونس وجيري بوي، فمن غير المتوقّع أن يفوز أحدها بأيّ مركز من المراكز الثلاثة الأولى».

ولكن لوك لم يهتمّ بذلك، ثم انتقلت عيناه إلى نسبة الرهان فوقعت عيناه على جوجوب الثاني فوجد أن نسبة الفوز له هي أربعون إلى واحد، ثم نظر لوك إلى ساعته فوجد أنها الرابعة إلا خمس عشرة دقيقة فقال لنفسه: حسناً، لقد انتهى الأمر الآن.

وتمنّى لو أنه قد راهن على كلاريد، الجواد الذي اختاره المراسل الثاني في ترشيحاته للفائزين. ثم فتح صحيفة التايمز

وانهمك في قراءة بعض موضوعاتها، ولكن ذلك لم يستمرّ مدة طويلة لأن الضابط ذا الوجه الصارم الذي كان جالساً في المقعد المقابل له قد أخذ يعلّق على ما قرأه لزميله المسافر معه.

وهكذا قضى الاثنان نصف ساعة في تبادل الحديث، بعدها هدأ الرجل العنيد وأخذته سِنة من النوم فتح خلالها فمه. وبعد مدّة قصيرة توقّف القطار فنظر لوك من النافذة ليجد أنه في محطّة خاوية فيها عدّة أرصفة، ثم وقعت عيناه على أحد الأكشاك المخصّصة لبيع الصحف في نهاية الرصيف الذي توقّف عنده القطار، ورأى لافتة كبيرة تحمل كلمتَي نتيجة الدربي، ففتح لوك الباب وقفز إلى الخارج مسرعاً نحو كشك الصحف، وبعد لحظة كان يحدّق والابتسامة العريضة على شفتيه وهو يقرأ بضعة أسطر تحت عنوان: «نتيجة الدربي: جوجوب الثاني، مازبيا، كلاريغولد».

ازدادت ابتسامة لوك اتساعاً لأن ذلك معناه حصوله على مئة جنيه يفعل بها ما يشاء، ثم طوى الصحيفة وعاد من حيث أتى ليجد نفسه وحده في المحطّة وقد غادرها القطار دون أن يشعر بذلك! ثم رأى حمّالاً على مقربة منه فسأله بانفعال وضيق قائلاً: بالله عليك متى غادر القطار المحطّة؟

فأجابه الحمّال قائلاً: أي قطار؟! لم يتوقّف قطار هنا منذ قطار الساعة الثالثة وأربع عشرة دقيقة.

– كان يوجد هنا قطار منذ لحظات وقد نزلت أنا منه... القطار السريع القادم من الميناء!

فأجابه الحمّال بجفاء قائلاً: قطار الميناء لا يتوقّف في أي مكان إلا في لندن.

فقال لوك مؤكّداً: ولكنه توقّف هنا وقد نزلت أنا منه!

فأجابه الحمّال بإصرار قائلاً: هذا القطار لا يتوقّف إلا في لندن.

- ولكنه توقّف عند هذا الرصيف، وقد نزلت أنا منه كما قلت لك.

وحين رأى الحمال أنه أمام حقائق قال له مؤنّباً: لم يكُن يجدر بك أن تفعل ما فعلت لأنه لا يتوقّف هنا!

- ولكنه توقف فعلاً.

- لقد توقّف لأن إشارة خلوّ الطريق لم تكُن مفتوحة له، وليست هذه محطّته.

- لستُ خبيراً مثلك بهذه المصطلحات، والمشكلة الآن: ماذا عليّ أن أفعل؟

فأعاد الحمال قوله: لم يكُن يجدر بك النزول منه.

فقال لوك: أنا أعترف بذلك، ولكن الخطأ قد ارتُكب ولا سبيل إلى تداركه باسترجاع الماضي، والذي أريد أن أصل إليه هو ما الذي ينصحني به رجل مثلك له خبرة في خدمة السكك الحديدية؟

- هل تسألني ماذا يجب عليك عمله؟

فقال لوك: نعم، أظن أنه توجد قطارات تقف هنا بصورة رسمية.

- أجل، ومن الأفضل لك أن تأخذ قطار الساعة الرابعة وخمس وعشرين دقيقة.

فقال لوك: إذا كان ذلك القطار سيذهب إلى لندن فسأركبه.

وعندما تأكّد لوك من ذلك راح يذرع رصيف المحطّة ذهاباً وإياباً، ثم وجد لافتة عرف منها أنه في محطّة فيني كلاريتون التي تُعَدّ محطةً صغيرة توصل إلى قرية ويتشوود أندرآسن. وبعد قليل أقبل قطار يجرّ عربةً واحدةً نزل منها ستة رجال أو سبعة، ثم عبروا الجسر متّجهين إلى الرصيف الذي وقف عليه لوك. ولم تمرّ لحظات حتى دبّت الحياة والحركة في الحمّال؛ إذ بدأ يدفع عربة محمّلة بالصناديق والسلال، وسرعان ما شاركه حمالٌ آخَر بدأ يحمل أوعية اللبن، وهكذا استيقظت فيني كلاريتون.

وأخيراً أقبل القطار المتّجه إلى لندن، وكانت عربات الدرجة الثالثة مزدحمة، أما الدرجة الأولى فقد كانت تتكوّن من ثلاث مقصورات في كل منها راكب أو جَمعٌ من الركّاب. وراح لوك يفحص المقصورات بدقّة، فوجد في الأولى رجلاً تنطق ملامحه بأنه من الرجال العسكريين يدخّن لفافة تبغ، ولكنه لم يجِد في نفسه قابلية للجلوس مع أحد فاتّجه إلى المقصورة الثانية التي كانت تضم سيدة شابة يظهر عليها أنها مربّية أطفال، وكان معها طفل كثير الحركة في الثالثة من عمره، فغادر لوك مكانه بسرعة متّجهاً إلى المقصورة الثالثة التي كان بابها مفتوحاً وليس بها إلا مسافرة واحدة عجوز ذكّرته بإحدى عمّاته، وهي العمّة ميلدرد التي كانت على قدر من الشجاعة جعلها تسمح له بأن يحتفظ بأحد الثعابين الصغيرة وهو في العاشرة من عمره، وكانت عمّته ميلدرد من العمّات الطيبات، لذلك دخل لوك إلى المقصورة وجلس.

وبعد خمس دقائق من النشاط والحركة في المحطّة بدأ القطار يتحرّك ببطء، فأعاد لوك النظر إلى صحيفته وبدأ يتّجه بنظره إلى

الأنباء التي تجذب انتباه الرجال عادة. ولم يكُن لوك يأمل في أن يتابع قراءته مدّة طويلة لأنه كان على ثقة من أن السيدة العجوز لن تقضي الطريق إلى لندن وهي صامتة.

وكان لوك محقاً فيما توقّعه؛ فقد كانت توجد نافذة تحتاج إلى من يقفلها. وبعد قليل كانت السيدة تحدّثه عن محاسن ذلك القطار الذي يستقلانه قائلة: هذا القطار يقطع المسافة في ساعة وعشر دقائق فقط، وهذا زمن جيد جداً، أفضل بكثير من قطار الصباح الذي يقطع المسافة في ساعة وأربعين دقيقة.

وصمتت بُرهة ثم استطردت قائلة: بطبيعة الحال يستقلّ كثيرٌ من الناس قطارَ الصباح لأن أجر السفر به أقلّ، وكنت قد عزمت السفر بقطار الصباح ولكنني لم أكُن أعرف أين وونكي بوه قطّتي الفارسية. إنها قطّة جميلة ولكنها كانت تتألّم من أذنها مؤخّراً، ولذلك لم أتمكّن من مغادرة البلدة إلا بعدما وجدت القطّة.

فتمتم لوك قائلاً: بالتأكيد.

ثم خفض ناظريه إلى الصحيفة. ولكن ذلك كان عبثاً لأن السيدة العجوز استمرّت في الحديث قائلة: ولذلك أخذت قطار المساء، وذلك له محاسنه لأنه غير مزدحم كقطار الصباح، مع أن ذلك لا يُعدّ شيئاً هاماً إذا سافر المرء بالدرجة الأولى. طبعاً أنا لا أفعل ذلك عادة لأنني أرى في ذلك إسرافاً، ولا سيما بعد زيادة الضرائب ونقص أرباح الأسهم وزيادة أجور الخدم وكل شيء، ولكنني كنت مضطرّة حقاً لأنني سأذهب في مهمّة هامة جداً كما ترى، وكنت أودّ أن أفكّر بهدوء فيما سأقوله بالضبط، فإذا وُجد أكثر من مسافر اضطُر المرء إلى أن يتحفّظ معهم، ولذلك قرّرت

السفر في الدرجة الأولى هذه المرّة فقط، مع أنه لا داعي إلى مثل ذلك التبذير.

ثم نظرت إلى وجه لوك الذي لفحته الشمس وقالت: أنا أعرف أنه من الطبيعي أن يسافر الضباط في الدرجة الأولى عندما يذهبون لقضاء إجازاتهم.

فقال لوك: لست ضابطاً.

- آه! أنا آسفة، لم أقصد. لقد ظننت أن الشمس قد لفحتك، ربما عزمت على قضاء عطلتك هنا بعد خدمتك في الشرق.

- أنا عائد من الشرق، ولكنني لست في إجازة.

ثم أضاف قائلاً: أنا من رجال الشرطة.

- حقاً؟! من رجال الشرطة؟ هذا أمر يثير الاهتمام. إن لي صديقة عزيزة انضمّ ابنها إلى رجال شرطة فلسطين.

أراد لوك أن يجنّب نفسه مزيداً من الأسئلة فقال: كنت أعمل في مضيق مايانغ.

- هذا غريب، مصادفة عجيبة حقاً! أعني سفرك معي في هذه المقصورة... لأن مهمّتي التي أسافر من أجلها إلى لندن تتعلّق بذهابي إلى اسكتلنديارد.

فسألها لوك قائلاً: حقاً؟

ثم سأل نفسه قائلاً: تُرى هل ستُفرغ ما في جعبتها بعد قليل أم ستمضي على هذه الحال حتى نصل إلى لندن؟

واستمرّت السيدة في حديثها قائلة: لقد كنت أنوي الذهاب

بقطار الصباح كما قلت، ولكن بحثي عن وونكي بوه هو الذي ثبّطني، ولكن ألا تظن أن الوقت متأخّر؟ أعني هل توجد مواعيد خاصة للعمل في اسكتلنديارد؟

فقال لوك: لا أظن ذلك؛ فهم يغلقون مكاتبهم في الساعة الرابعة أو نحوها.

- لكن ربما رغب أحدٌ في الإبلاغ عن جريمة خطيرة في أية ساعة، أليس كذلك؟

- بلى، هو كذلك.

وصمتت السيدة بُرهة، ثم ظهر عليها القلق فقالت: أنا من الذين يؤمنون بالذهاب إلى المسؤول الأول مباشرةً. صحيح أن جون ريد، رجل الشرطة عندنا في ويتشوود، رجل ظريف مؤدّب ولكنني لا أشعر بأنه الشخص الذي يمكنه معالجة شيء خطير؛ فقد اعتاد على التعامل مع الذين يتجاوزون حدّ السرعة في قيادتهم أو الذين تهاونوا في استخراج رُخص لكلابهم... وأظن، بل أنا متأكّدة من أنه ليس بالشخص الذي يمكنه معالجة جريمة.

فارتفع حاجبا لوك بعجب ثم قال: جريمة؟!

فأومأت السيدة العجوز برأسها بشدّة ثم قالت: نعم، جريمة. أراك مدهوشاً! لقد كنت مثلك في بادئ الأمر حتى إنني ما كنت أصدّق نفسي وظننت أنني أتخيّل أشياء.

فسألها لوك برقة قائلاً: هل أنت متأكّدة من أنك لم تتخيّلي ذلك؟

فهزّت رأسها مؤكّدة ثم قالت: آه! نعم. ربما تخيّلت ذلك في

المرّة الأولى، ولكن لم يحدث ذلك في المرّة الثانية أو الثالثة أو الرابعة، فبعد ذلك يوقن المرء.

فسألها لوك قائلاً: هل تعنين أن عدّة جرائم قد وقعت؟

فأجاب الصوت الرقيق الهادئ قائلاً: نعم، يؤسفني أن أقول ذلك! ولذلك وجدت أنه من الأفضل أن أذهب إلى اسكتلنديارد مباشرة كي أقصّ عليهم ذلك. ألا تظن أن ذلك هو الأفضل؟

وهنا نظر لوك إليها وهو يفكّر ثم قال: بلى، أعتقد أنك محقّة فيما قلت.

ثم راح يتخيّل كيف سيتخلّص رجال اسكتلنديارد من أمثال تلك السيدة التي تتخيّل أشياء لا وجود لها، ثم أفاق من تأمّلاته على صوتها الذي كان يقول: هل تعلم أنني تذكّرت أنني قرأت يوماً قضية آبركومبي الذي قام بوضع السمّ لكثير من الناس قبل أن يثير الشبهات حوله، وأن أحدهم قال عنه إنه كان يتميّز بنظرة خاصة ينظر بها إلى الشخص. وما كاد أن يمرّ وقت قصير بعد ذلك حتى وقع ذلك الشخص فريسة للمرض؟ أنا لم أصدّق ما قرأت، ولكنني أُقرّ بأن ذلك أمر حقيقي الآن.

- ما ذلك الأمر الحقيقي؟

- تلك النظرة التي يُلقي بها الشخص.

نظر لوك إليها فرآها ترتعد قليلاً، وكانت وجنتاها القرمزيتان قد فقدتا بعضاً من لونها، ثم قالت: لقد رأيت تلك النظرة أولاً في حالة آمي جيبز، وبعد ذلك ماتت آمي، ثم مع كارتر، ثم مع تومي بيرز. ولكنْ كانت تلك النظرة موجّهة إلى الدكتور همبلبي بالأمس

فقط، وهو رجل طيّب، طيب حقاً. لقد كان كارتر يثمل كثيراً، وكان تومي فتى صفيق الوجه وقحاً يسيء معاملة الصغار، فلم أشعر بأسى عميق نحوهم، ولكن الأمر يختلف بالنسبة إلى الدكتور همبلبي، لذا يجب إنقاذه. والشيء المروّع هو أنني لو ذهبت إليه وقلت له ذلك فلن يصدّقني بل سيضحك منّي، وكذلك جون ريد لن يصدّقني أيضاً، ولكن الأمر سيكون مختلفاً مع اسكتلنديارد لأنه من الطبيعي أنهم اعتادوا على مواجهة الجرائم.

ثم نظرت إلى النافذة وقالت: سنصل بعد دقيقة.

وفتحت حقيبتها وأغلقتها، ثم أمسكت بمظلتها وقالت: أشكرك، لقد شعرت براحة في الحديث معك، وأنا سعيدة لأنك ظننت أنني أفعل ما يجب عليّ فعله.

فقال لوك بعطف: أنا متأكّد من أنهم سيُسدون إليك النصيحة الخالصة في اسكتلنديارد.

ثم راحت تبحث في حقيبتها عن شيء وهي تقول: حقاً أنا أشعر بامتنان لك! هذه بطاقتي. آه، ليس معي إلا هذه البطاقة فقط ويجب أن أحتفظ بها لأقدّم بها نفسي إلى اسكتلنديارد.

- بالتأكيد.

- ولكن اسمي هو بينكرتون.

- اسم ملائم جداً لك يا آنسة بينكرتون.

قالها لوك وهو يبتسم، ثم أضاف قائلاً بسرعة: اسمي لوك فيتز ويليام.

وعندما وقف القطار على الرصيف قال متسائلاً: هل أستدعي لك سيارة؟

وكأن تلك الفكرة قد صدمت الآنسة بينكرتون فقالت وهي تستنكر ذلك السؤال: لا، أشكرك؛ سأستقلّ قطار الأنفاق لأصل به إلى ميدان ترافلغار، ومن هناك أسير إلى وايتهول.

- حسناً، أتمنّى لك حظاً سعيداً.

ثم صافحته بحرارة وقالت: لقد كنتَ رقيقاً معي. هل تعلم أنني ظننت أنك لا تصدّقني في بادئ الأمر؟

وعندئذ احمرّ وجه لوك خجَلاً وقال: حسناً، من الصعب ارتكاب عدد من الجرائم دون أن تُكتشَف، أليس كذلك؟

فهزّت الآنسة بينكرتون رأسها ثم قالت: لقد أخطأت في ذلك يا ولدي العزيز؛ فمن السهل جداً ارتكاب جريمة قتل ما دام لا يوجد أحد يُشتبَه فيه، وكما تعلم فالشخص المقصود هنا هو آخِر شخص يمكن للمرء أن يشتبه فيه.

فقال لوك: حسناً، على أية حال أنا أتمنّى لك حظاً سعيداً.

ثم اختفت الآنسة بينكرتون بين الجموع في حين ذهب هو ليبحث عن متاعه وهو يتساءل في نفسه: أتراها مجنونة قليلاً؟ لا، لا أظن ذلك؛ فالأمر كله لا يعدو مجرّد خيال. أرجو أن يعاملوها برفق لأنها عجوز طيبة.

* * *

الفصل الثاني

كان جيمي لوريمر يُعَدّ من أصدقاء لوك القُدامى، حتى إن لوك نزل ضيفاً على جيمي عندما وصل إلى لندن. وفي صباح اليوم التالي كان لوك شارد الفكر عندما سمع جيمي يسأله وهو يعيد قراءة خبر في الجريدة، فأفاق من شروده وقال: آسف يا جيمي.

- فيمَ كنت شارد الفكر؟ هل كنت تفكّر في الموقف السياسي؟

فقال لوك: لا، كنت أفكّر في أمر غريب، فبالأمس كانت رفيقتي في القطار امرأة عجوزاً، وها أنا أقرأ الآن أن سيارة قد صدمتها فصرعتها.

- وكيف عرفت أنها هي التي كانت في القطار؟

- طبعاً قد لا تكون هي، ولكن الاسم الذي ذكرته لي هو نفسه المذكور في الجريدة، وقد صدمتها السيارة في أثناء عبورها شارع وايتهول، ولم تتوقف السيارة.

- هذا أمر محزن!

- أجل، أنا آسف لما حدث للسيدة العجوز حقاً. لقد ذكّرتني بعمّتي ميلدرد.

- لا بد من أن يُقبَض على سائق السيارة وتُوجّه إليه تهمة القتل الخطأ.

* * *

بعد مرور أسبوع كان لوك يلقي نظرة عابرة إلى الصفحة الأولى من صحيفة التايمز عندما أطلق صوت تعجّب قائلاً: تباً!

فرفع جيمي لوريمر رأسه وسأله قائلاً: ما الأمر؟

فلم يجِب لوك لأنه كان يحدّق إلى الاسم المطبوع أمامه، فأعاد جيمي سؤاله فرفع لوك رأسه ونظر إلى صديقه وكانت ملامحه غريبة، حتى إن جيمي شعر بالرهبة فسأل قائلاً: ما الأمر يا لوك؟ منظرك غريب جداً؛ يوحي وكأنك شاهدت شبحاً.

ومرّت دقيقة أو دقيقتان قبل أن يجيب الآخَر، ثم أسقط الصحيفة من يده وسار إلى النافذة، ثم عاد مرّة أخرى حيث كان في حين كان جيمي يراقبه بدهشة متزايدة، ثم ألقى لوك بجسده على أحد المقاعد وانحنى إلى الإمام قائلاً: جيمي، هل تذكر أنني حدّثتك عن سيدة عجوز سافرتُ معها إلى لندن في اليوم الذي وصلت فيه إلى إنكلترا؟

- هل تعني تلك التي ذكّرتك بعمّتك وهي نفسها التي دهمتها إحدى السيارات بعد ذلك؟

- نعم، هي نفسها. أصغِ إليّ يا جيمي، لقد ذكرَتْ لي قصّة طويلة مفادها أنها كانت في طَريقها إلى اسكتلنديارد لتقصّ عليهم نبأ عدّة جرائم ارتُكبت وأنه يوجد قاتل حُرّ في قريتها. هذا هو مجمل قصّتها، وذلك القاتل ينفّذ جرائمه بسرعة.

- أذكر أنك لم تقُل لي بأنها مجنونة.

- لم أظنها كذلك.

- آه! لا تقُل ذلك يا صديقي، جرائم بالجملة!

فقال لوك بصبر أوشك على النفاد: لم أظن أن بها جنوناً وإنما ظننتها تترك العنان لمخيّلتها بعض الشيء كما تفعل السيدات العجائز أحياناً.

- حسناً، ربما كان الأمر كذلك، ولكن لا بدّ من أنها كانت مجنونة بعض الشيء أيضاً.

- دعنا ممّا تظن يا جيمي لأنني سأقول لك شيئاً الآن.

- حسناً، استمرّ في حديثك.

- لقد ذكرت بعض القرائن حين صرّحت باسم واحد أو اثنين من الضحايا، ثم قالت إن ما يشغل بالها هو أنها عرفت مَن سيكون الضحية التالية.

فقال جيمي متسائلاً بتشجيع: حسناً، مَن؟

- هل تذكر كيف يعلق اسمٌ بذاكرتك لسبب صغير قد يكون سخيفاً؟ هكذا علق بذاكرتي الاسم الذي ذكرته لأنه يذكّرني بإحدى أغنيات الطفولة، هذا الاسم هو همبلبي، الدكتور همبلبي. لقد ذكرت السيدة العجوز أن الضحية التالية ستكون الدكتور همبلبي. وكانت مضطربة لأنه كان رجلاً طيباً، وكما ذكرت لك علق الاسم بذاكرتي للسبب الذي قلت لك عنه.

فقال جيمي: وماذا بعد ذلك؟

- حسناً، انظر إلى هذا.

ثم أعطاه الصحيفة وقد أشار بإصبعه إلى نبأ في صفحة الوَفَيات: «توفّي الدكتور همبلبي فجأة في الثالث عشر من حزيران (يونيو)، حيث يقيم في ويتشوود أندرآسن. جون إدوارد همبلبي طبيب، وزوج جيسي روز همبلبي، سوف تُشيّع الجنازة في يوم الجمعة. رجاء عدم إرسال الزهور».

- أرأيت يا جيمي؟ هذا هو الاسم نفسه في المكان نفسه، وهو طبيب أيضاً، فما قولك؟

ومرّت لحظة قبل أن يجيب جيمي بصوت جاد قائلاً: ربما كان الأمر مجرّد مصادفة بحتة.

- أهي مصادفة يا جيمي؟ أهذا كل ما في الأمر؟

ومرة أخرى بدأ لوك يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، فقال جيمي: وماذا تكون غير ذلك؟

وهنا استدار لوك بسرعة وقال: لنفرض أن كل كلمة قالتها تلك العجوز كانت حقيقة، ولنفرض أن تلك القصة الخيالية لم تعُد إلا حقيقة مجرّدة.

- هذا أمر لا يُصدَّق لأنه لا يحدث مثل ذلك!

- وما رأيك في قضية آبركومبي؟ ألم يقتل عدداً غير قليل؟

فقال جيمي: بلى، أكثر ممّا أُدين به. لي صديق له ابن عم كان يعمل محقّقاً بتلك القضية، وقد سمعت منه شيئاً من تفصيلاتها. لقد قُبض على آبركومبي وهو يعطي الزرنيخ للطبيب البيطري، ثم

أخرجوا جثّة زوجته فوجدوا أنها ماتت من تعاطي الزرنيخ، ومن المؤكّد أن شقيق زوجته مات أيضاً بنفس السمّ. وليس هذا هو كل ما في الأمر، فقد ذكر لي صديقي أن ابن عمّه قال إن المسؤولين يقدّرون الضحايا بما لا يقلّ عن خمس عشرة ضحية.

- تماماً، إذن فمثل هذه الأشياء تحدث فعلاً.

- أجل، ولكنها لا تحدث بكثرة.

- ومَن أدراك؟ من الممكن أن تحدث أكثر ممّا يُخيَّل إليك.

- أنت تتكلّم بعقلية رجل الشرطة؟ ألا يمكنك أن تنسى أنك شرطيّ، ولا سيما بعدما أن تقاعدت؟

- الشرطي يظلّ شرطياً طوال عمره. والآن استمع إليّ يا جيمي، لنفرض أن سيدة عجوزاً عانساً قد اكتشفت سرّ جرائم آبركومبي قبل أن يبدأ في ارتكابها فأسرعت إلى المسؤولين كي تخبرهم بها، لنفرض ذلك، فهل تظنّ أنهم كانوا سيصغون إليها؟

فابتسم جيمي ثم قال: وأي إصغاء؟

- هب أنهم قالوا إنها مجنونة كما قلت أنت، أو ذات خيال واسع كما قلت أنا، ثم تبيّن خطأ ما ذهب إليه كلانا.

- وما الوضع الحقيقي إذن؟

فقال لوك ببطء: الوضع كالآتي، لقد سمعت قصّة غير محتمَلة الحدوث، وإن لم يكن من المستحيل وقوعها، وتوجد

واقعة واحدة تؤيّد تلك القصّة ألا وهي موت الدكتور همبلبي. لقد كانت الآنسة بينكرتون في طريقها إلى اسكتلنديارد لتذكر لهم تلك القصّة الغريبة بعيدة الاحتمال، ولكنها لم تصل إلى هناك لأن سيارة قد صدمتها وقتلتها، ثم إن السيارة لم تتوقف، فماذا...

وهنا قاطعه جيمي قائلاً: أنت لا تعرف ما إذا كانت قد وصلت إلى هناك أم لا، فربما تكون قد قُتلت بعد زيارتها لاسكتلنديارد وليس قبل ذلك.

- ربما، ولكنني لا أظن ذلك.

- هذا مجرّد افتراض، وخلاصة الموضوع أنك تثق في تلك المأساة.

فهزّ لوك رأسه بحدة وقال: لا، أنا لا أقول ذلك، كل ما أقوله هو أنه توجد قضية تستوجب التحقّق منها.

- وهل ستذهب أنت إلى اسكتلنديارد؟

- لا، لم يصل الأمر إلى هذا الحد بعدُ، وكما قلت أنت قد يكون موت ذلك الرجل المدعوّ همبلبي مجرّد مصادفة عابرة.

- إذن ما الذي يدور في ذهنك؟

- أرى أن أذهب إلى ذلك المكان وأتقصّى الأمر. ألا توافقني على أن هذا هو الشيء الوحيد المعقول الذي يمكن عمله؟

فنظر جيمي إليه طويلاً ثم قال: هل أنت جاد فيما تقول يا لوك؟

- نعم، أنا جاد جداً.

- لنفرض أن الأمر كله لا يعدو كونه تخيّلات.

- هذا أفضل.

فقطب جيمي جبينه ثم قال: بالطبع، ولكنك لا تظن أن الأمر كذلك، أليس كذلك؟

- يا صديقي، أنا لا أستطيع أن أصل إلى أي قرار دون إثبات.

ثم صمت بُرهة تساءل بعدها جيمي قائلاً: ألديك خطة ما؟ أعني أنه يجب وجود أكثر من سبب يدعو شخصاً مثلك إلى الوصول إلى تلك القرية فجأة.

- أجل، أظن أنه سيكون لديّ السبب.

- الأمر لا يحتمل الظن يا صديقي. هل تدرك معنى الحياة في قرية إنكليزية صغيرة؟ رائحة الغريب هناك تمتد إلى مسافة ميل على الأقل.

- سأتنكّر في شخصية ما، فماذا تقترح عليّ؟ فنان؟ أظن أن ذلك من الصعوبة بمكان لأنني لا أعرف الرسم أو التلوين.

وعندئذ اقترح جيمي أن يكون لوك فناناً من المدرسة الحديثة، ولكن لوك قال: ما رأيك في التأليف؟ أظن أن المؤلّفين قد يذهبون إلى فنادق القرى الصغيرة لكتابة مؤلّفاتهم أو لصيد السمك. ولكن عليّ أن أعرف ما إذا كان هناك نهر بالقرب من القرية، أم هل أدّعي أنني في فترة نقاهة من مرض وأن الطبيب نصحني بالذهاب إلى الريف؟ لا بدّ من أن يوجد سبب قويّ لغريب متمتّع بكامل الصحّة كي يذهب إلى قرية إنكليزية.

فقال جيمي: انتظر قليلاً، أعطني الصحيفة التي كنت تقرؤها.

ونظر جيمي إلى الصحيفة بدقّة ثم هتف قائلاً: لقد ظننت ذلك يا لوك، سأرتّب لك كل شيء بسهولة.

فاستدار لوك بسرعة وقال: ماذا تقول؟!

فقال جيمي بفخر: لقد تذكّرت شيئاً فيما قرأت، ويتشوود أندرآسن هي القرية نفسها.

- هل يوجد في القرية مَن هو صديق لك ويعرف المحقّق الجنائي مثلاً؟

- ليس لي أصدقاء في تلك القرية بل مَن هو أفضل من ذلك. أنت تعلم أن الحياة قد منحتني عدداً وفيراً من العمّات وأبناء العمومة؛ فقد كان أبي أحد ثلاثة عشر من الإخوة. والآن أنصت إليّ جيداً، إن لي ابنة عمّ في قرية ويتشوود أندرآسن.

- حدّثني عنها.

- ابنة عمّي تُدعى بريدجت كونواي، ومنذ عامين كانت تعمل سكرتيرة للّورد هوايتفيلد.

- هل تعني ذلك الرجل الذي يملك تلك الصحف الأسبوعية المكروهة؟

- نعم، وهو رجل قصير مكروه ومختل أيضاً، وُلد في ويتشوود أندرآسن، ولما كان من ذلك النوع الذي يحدّثك عن وضاعة أصله ومنشئه وكيف صنع من نفسه شيئاً كبيراً فقد عاد إلى

قريته مسقط رأسه واشترى المنزل الكبير الوحيد في المنطقة، وهو الآن مشغول بتحويل ذلك المنزل إلى أنموذج لقصر كبير، وممّا هو جدير بالذكر أن ذلك المنزل كان ملكاً لعائلة بريدجت.

- وابنة عمّك تعمل سكرتيرة عنده، أليس كذلك؟

- كانت، لأنها قد حصلت على ما هو أفضل من ذلك، فهي مخطوبة له الآن! وهو صيد ثمين بطبيعة الحال لأنه على درجة كبيرة من الثراء. وكانت بريدجت قد فشلت من قبل في حب سابق، وقد تأثّرت كل التأثّر بسبب ذلك، وأظنها ستكون حازمة مع زوجها القادم وأنه سيطيعها طاعة عمياء.

- وما دوري إذن؟

- ستذهب إلى هناك على أنك أحد أبناء عمومتها لأن لها عدداً كبيراً منهم، لن يقدّم أو يؤخّر إذا ظهر واحد منهم، وسأرتب لك الأمور معها فقد كنا أصدقاء دائماً، أما السبب الذي يدعوك إلى الذهاب إلى القرية فسيكون السحر يا صديقي.

- السحر؟!

- السحر الذي يزاوله أفراد الشعب والعقائد المحليّة ومثل هذه الأمور؛ فالقرية مشهورة بتلك الأشياء، وفي القرية مكان كان السحَرة يُجمَعون فيه ويُحرَقون منذ قرن! كما أنك ستجد فيها تقاليد عجيبة. وأما أنت فستدّعي أنك تؤلّف كتاباً تجمع فيه بين عادات مضيق مايانغ والتقاليد الإنكليزية القديمة، مثل الشبه ومظاهر الاختلاف إلى غير ذلك، وبذلك يمكنك أن تنتقل وفي يدك مفكّرة فتقابل أقدم السكان سناً لتسألهم عن العادات والتقاليد المحلية؛ فقد اعتادوا هذا الأمر، وإذا أقمت في آسن مانور فسيكون ذلك

دليلاً على صحة ما تدّعيه.

- وماذا عن اللورد هوايتفيلد؟

- سيكون الأمر على ما يرام؛ فهو غير متعلّم ويصدّق أي شيء يُقال له، حتى إنه يصدّق ما يقرؤه في صحفه فعلاً. على أية حال ستتولى بريدجت أمره وأنا أثق بها.

ثم تنهّد لوك بعمق وقال: جيمي، يبدو أن الأمر سيكون سهلاً، وستكون رجلاً مذهلاً إذا كان بإمكانك ترتيب الموضوع مع ابنة عمك.

- سيكون الأمر على ما يُرام، دع ذلك لي.

- امتناني لك لا حدّ له!

فقال جيمي: كل ما أطلبه منك أنك إذا كنت ستُقبل على قاتل مجنون فاستدعني قُبيل اللحظة الحاسمة.

ثم نظر إلى لوك وقال بحدة: ما الأمر؟

فقال لوك ببطء: لقد تذكّرت شيئاً قالته السيدة العجوز. لقد قلتُ لها إن من الصعب ارتكاب عدّة جرائم دون اكتشاف أمرها، فقالت لي: أنت مخطئ؛ فمن السهل جداً ارتكاب جريمة قتل.

وصمت، ثم عاد يقول ببطء: سيكون الأمر عجيباً إذا كانت تلك هي الحقيقة يا جيمي، أما إذا كان...

- كان ماذا؟

- كان من السهل ارتكاب جريمة قتل.

* * *

الفصل الثالث

كانت الشمس لا تزال في أفق السماء عندما أوقف لوك سيارته المستعمَلة التي كان قد اشتراها حديثاً، وذلك عندما وصل إلى قرية ويتشوود أندرآسن، وكان يوماً حاراً من أيام الصيف. ثم نظر إلى القرية فرأى أن يد التطوّر لم تمسّها وأن عليها مسحة من البراءة والأمن، وأنها ما زالت تتكون من شارع رئيسي طويل فقط. ودار بخلد لوك أنه ربما يكون قد مسه بعض الجنون لأن الموضوع كله يكاد يكون خيالياً. هل جاء حقاً إلى تلك القرية كي يكشف الستار عن قاتل بالرغم من أنه ليس لديه أي دليل سوى ثرثرة سيدة عجوز ونعي وقع نظره عليه مصادفة؟

ثم هزّ رأسه وتمتم قائلاً: من المؤكّد أن مثل هذه الأشياء لا يمكن حدوثها، أم تراها تحدث فعلاً؟! عليّ أن أُثبت لنفسي إذا ما كنت أعظم أبله حملته الأرض أم أن حاستي في اكتشاف الجرائم قادتني إلى مجرم خفيّ.

وبعد قليل أدار محرّك سيارته وقادها إلى الشارع الرئيسي للقرية. وكانت توجد حوانيت ومنازل من الطراز القديم تظهر عليها علامات الغنى، كما كانت توجد منازل صغيرة جميلة تحيط بها حدائق مزهرة. وكان يوجد فندق يُدعى بلز وموتلي يقع خلف

الشارع الرئيسي بقليل، كما كانت توجد حديقة عامة تخصّ القرية وبحيرة يسبح فيها البط، وكان بالقرب منها منزل كبير ظنّه مبتغاه الذي أُطلق عليه اسم «آسن مانور»، ولكنه عندما اقترب منه أدرك خطأه لأنه شاهد عليه لافتة كبيرة كُتب عليها «المتحف والمكتبة».

وبعد مسيرة دقائق رأى مبنى ضخماً على الطراز الحديث يخالف بذلك باقي مباني القرية، فعرف لوك أن ذلك المبنى يضمّ المعهد ونادي الشباب، وعندئذ توقّف لوك كي يسأل عن آسن مانور الذي ينشد الوصول إليه، فقيل له إن آسن مانور يقع على مسافة نصف ميل وإنه سيرى بوّابته على اليمين، فسار لوك في طريقه فرأى البوابة الحديدية التي يبدو أنها جديدة، فقاد سيارته ماراً بها، ثم رأى بناء أحمر تراءى له قليلاً من بين أغصان الأشجار، وبعد أن انحنى به الطريق وقع نظره على البناء الشامخ المواجه له الذي يُخيّل إلى الناظر إليه أنه قلعة من القلاع القديمة البغيضة.

وبينما كان يتأمّل ذلك الكابوس الماثل أمامه شاهد فتاة تسير بجانبه، ورأى أن شعرها الأسود قد لعبت به ريح هبّت فجأة، فذكّره منظرها بصورة رآها لساحرة ذات مرّة، ذلك الوجه الشاحب ذو الملامح الدقيقة وذلك الشعر الأسود المتطاير إلى أعلى الذي ما كان ليراه لو أنه رأى تلك الفتاة وقد امتطت مكنسة مثل الساحرات حينما كُنّ يطرن في السماء!

وأقبلت الفتاة نحوه مباشرةً ثم بادرته قائلة: لا بدّ وأنك لوك فيتز ويليام. أنا بريدجت كونواي.

ها هو الآن قد رآها على حقيقتها فارعة رشيقة ذات وجه دقيق الملامح وخدّين غائرين بعض الشيء وحاجبين مقرونين وعينين سوداوين وشعر فاحم، وقد خُيّل إليه أنها مثل لوحة دقيقة مرسومة. قال لها: كيف حالك؟ يجب عليّ أن أقدم إليك اعتذاري لأنني أقحمت نفسي عليك بهذه الطريقة، ولكن جيمي أخبرني بأن ذلك لن يضيرك.

- حقاً إن هذا لن يؤثّر عليّ في شيء، بل أنا مسرورة جداً.

ثم ابتسمت ملء نواجذها وقالت: أنا وجيمي يساعد أحدنا الآخَر دائماً، فإذا كنت تنوي الكتابة عن العادات والتقاليد فهذا هو المكان الذي تنشده؛ ففيه جميع الأنواع والأماكن التي تحتاج إليها.

- عظيم!

ثم سارا معاً إلى المنزل، وتذكّر لوك أن جيمي ذكر له أن ذلك المنزل كانت تملكه أسرة بريدجت من قبلُ. ثم اختلس نظرة أخرى إليها وهي تسير بجواره فرأى أنها كانت في الثامنة والعشرين من عمرها تقريباً وأن مظهرها يدلّ على الذكاء وأنها من ذلك النوع من البشر الذين لا يمكنك معرفة شيء عنهم إلا إذا أفضوا به إليك.

ومن الداخل كان المنزل مريحاً ونظامه يدلّ على جودة الذوق، جودة ذوق فنّان متخصّص، ثم قادته بريدجت إلى غرفة مليئة بأرفف الكتب والمقاعد المريحة، وكانت توجد إحدى طاولات الشاي بالقرب من النافذة وقد جلس إليها شخصان فقالت: جوردون، أقدّم لك لوك، أحد أبناء عمومتي.

كان اللورد هوايتفيلد رجلاً ضئيل الجسم ذا رأس يكاد

يكون أصلع ووجه مستدير، ويلبس ملابس تدلّ على عدم العناية بانتقائها، وقد حيّا لوك قائلاً: أنا سعيد برؤيتك. لقد سمعت أنك عُدت من الشرق منذ وقت قريب، وهذا أمر مثير. وتقول بريدجت إنك تؤلّف كتاباً، والقول السائد الآن إن كُتباً كثيرة تؤلّف، أما أنا فأقول إنه يوجد مكان للكتاب الجيد في أي وقت.

ثم قدّمته بريدجت إلى الشخص الثاني قائلة: هذه عمّتي الآنسة آنستروثر.

رآها لوك سيدة متوسّطة العمر ذات فم يدلّ على البَلَه بعض الشيء. ولم يمرّ وقت قليل حتى علم لوك أن السيدة آنستروثر قد وهبت عقلها وإحساسها لشيء واحد، هو فلاحة البساتين؛ فقد كانت لا تتحدّث إلا عنها ولا يشغل ذهنها سواها، حيث قالت بعد التعارف: هل تعلم أن أفضل مكان لحديقة صخريّة هو المكان الذي يقع بعد حديقة الورود يا جوردون؟ وعندئذ يمكنك أن تحصل على أفضل حديقة مائية في المكان الذي يتساقط فيه ماء الغدير.

فتمدّد اللورد هوايتفيلد على مقعده إلى الخلف ثم قال ببساطة: يمكنك ترتيب كل ذلك مع بريدجت، أنا أعرف أن النباتات الصخرية نباتات صغيرة، ولكنني لا أظن أن ذلك من الأهمية بمكان.

فقالت بريدجت: أنا لا أظن أن النباتات الصخرية هي ما تريده يا جوردون.

ثم صبّت بعض الشاي للوك، وعندئذ قال جوردون: أنت على حق، أنا لا أظنّها تساوي ما يُصرف عليها من المال فزهورها لا تكاد تراها العين، أنا أحب الزهور الكبيرة أو زهور اليرانيوم.

ولكن السيدة آنستروثر كانت تُحسن الكلام عمّا تتحدث عنه دون الالتفات إلى أي مقاطعات، لذلك قالت: أنا أعتقد أن هذه النباتات الصخرية سيوافقها هذا الطقس.

ثم راحت تشرح وجهة نظرها ببعض النماذج التي أمامها، فألقى اللورد هوايتفيلد بجسده الضئيل إلى ظهر المقعد وراح يرشف الشاي ببطء وهو يتفحّص لوك، ثم تمتم قائلاً: إذن أنت تؤلف كتباً.

شعر لوك بشيء من الضيق، وكاد يبدأ في الإيضاح إلا أنه لاحظ أن اللورد هوايتفيلد لم يكُن يعني بسؤاله مزيداً من المعلومات لأنه قال: وددت لو أنني ألّفت كتاباً ما، وأرجو أن تلاحظ أنه في استطاعتي عمل ذلك، وعندئذ سيكون كتاباً شيّقاً جداً لأنني قد تعرّفت إلى أناس كثيرين يثيرون الاهتمام، ولكن مشكلتي أنه ليس لدي الوقت لأنني في شغل دائماً.

- طبعاً، لا بدّ أنك ذلك الرجل.

فقال اللورد هوايتفيلد: لن تصدّق مقدار ما أحمله من أعباء على كتفي؛ فأنا أهتم بكل واحدة من مطبوعاتي بنفسي وأعتبر نفسي مسؤولاً عن تشكيل الرأي العام، ففي الأسبوع القادم سيفكّر ملايين من الناس كما أردت لهم أن يفكّروا ويشعروا، وهذا يعني مسؤولية كبيرة بالنسبة إليّ، ولكنني لا أهاب تلك المسؤولية ولا أخافها لأنني أهل لها.

ثم انتفخ صدر اللورد هوايتفيلد وحاول أن يقلّل من حجم بطنه وهو ينظر إلى لوك بمودّة، وهنا قالت بريدجت كونواي: أنت رجل عظيم يا جوردون، هل لك في مزيد من الشاي؟

فأجابها اللورد هوايتفيلد ببساطة: أنا رجل عظيم حقاً. لا، لن أتناول مزيداً من الشاي.

ثم هبط من عليائه إلى مستوى البشر وسأل ضيفه برقّة قائلاً: هل تعرف أحداً في هذه البقاع؟

فهزّ لوك رأسه نفياً، ثم رأى أن من الأفضل له أن يبدأ في تقصّي ما جاء من أجله فقال: على الأقل يوجد رجل وعدته أن أزوره وهو صديق لأصدقاء لي. هذا الرجل يُدعى همبلبي وهو طبيب.

وهنا اعتدل اللورد هوايتفيلد في مقعده وقال: آه! الدكتور همبلبي؟ يا للأسف!

- ما الذي يدعو إلى الأسف؟

- لقد مات منذ أسبوع.

- يا إلهي! أنا آسف لذلك.

- لم أكُن أظن أن أمره يهمّك. لقد كان صُلب الرأي عنيداً أبله.

قالت بريدجت: هذا معناه أنه عارض جوردون.

فقال اللورد هوايتفيلد: أظن أنه يمكنني أن أقول لك إن الموضوع يتعلّق بمصدر المياه، فكما تعلم يا سيد فيتز ويليام، أنا شخص أشعر بصالح هذه البلدة في قرارة نفسي؛ فقد وُلدت هنا، وُلدت في هذه البلدة.

وشعر لوك بأسى لأنهم تركوا موضوع همبلبي إلى موضوع

اللورد هوايتفيلد الذي راح يقول: وأنا لا أخجل من ماضيّ ولا يضيرني معرفته؛ إذ لم تكُن لديّ الفرص الطبيعية مثل غيري، فأبي كان يملك محلّ أحذية. نعم، محلاً عادياً للأحذية، وكنت أعمل في هذا المحلّ وأنا حدَث صغير، ثم رفعت من شأن نفسي بوسائلي الخاصة يا فيتز ويليام، وقد صمّمت على أن أُخلّص نفسي من ذلك الحضيض، وبمساعدة الله ثم التصميم والعمل الشاق تمكّنت من ذلك، وهذا الذي جعلني فيما أنا عليه الآن.

وتبع ذلك سرد حافل لحياة اللورد هوايتفيلد الذي ختم حديثه بقوله: وأنا لا يهمّني أن يعرف العالَم كيف وصلت إلى ما أنا عليه الآن؛ فلست أخجل من آلام صباي. وها أنا قد جئت إلى المكان الذي نشأت ووُلدت فيه. هل تعرف ماذا يوجد مكان المحلّ الذي كان يملكه والدي الآن؟ يوجد بناء حديث تبرّعت به ويضمّ معهداً ونادياً للشباب، وهو على أحدث طراز، فقد قام بتصميمه أفضل المهندسين في البلاد، مع أنني أرى أنه لم يبذل جهداً خاصاً في تصميمه.

فقالت بريدجت: هذا لا يدعو إلى الأسف لأنك قد حقّقت رغباتك في هذا المنزل.

وهنا ضحك اللورد هوايتفيلد ثم قال: نعم، لقد حاولوا أن يتغلّبوا على إرادتي هنا، فقالوا إنني يجب أن أتقيّد بالطابع الخاص للبناء، ولكنني رفضت وقلت لهم بأنني سأُقيم في هذا المكان وأودّ أن أُظهر للناس أن لديّ أموالاً، ولذلك عزلت أحد المهندسين عندما رفض تنفيذ رغباتي واستدعيت غيره ليحققها.

فقالت بريدجت: لقد عمل على تحقيق ما شطّ به خيالك الجامح!

فقال اللورد هوايتفيلد وهو يربت على ذراعها: لقد كنتِ تودّين لو تُرك المكان على حاله التي كان عليها، ولكن لا فائدة من الحياة في الماضي يا عزيزتي؛ فالقُدامى لم يكونوا يعرفون الكثير، كما أنني لم أكُن أرغب في بناء عاديّ من طوب أحمر، بل كنت أرغب دوماً في قلعة وها أنا قد حصلت عليها الآن. أنا أعرف أن ذوقي ليس ممتازاً، ومن ثَم تركت حريّة التصرّف للمختصّين كي ينظّموا البناء من الداخل كيفما شاؤوا، ولا بدّ من أن أعترف بأنهم نجحوا في ذلك بالرغم من أنه يُخيّل إليّ أن بعض الأشياء ليست كما يجب.

فقال لوك وقد خانته الكلمات: حسناً، الشيء الذي يدعو إلى الفخر هو أن يعرف المرء ماذا يريد حقاً!

فقال الآخَر وهو يضحك: وعادة أحصل على ما أريد.

فقالت بريدجت وكأنها تذكّره: ولكنك كدت تفقد ما كنت تريده في مشروع المياه.

فقال اللورد هوايتفيلد: أجل، ولكن همبلبي كان أبله. عادة يكون هؤلاء المسنون أغبياء لا ينصتون إلى صوت العقل.

فقال لوك: أظن أن الدكتور همبلبي كان رجلاً صريحاً، ولا بدّ من أنه قد خلق لنفسه أعداء كثيرين بسبب تلك الصراحة على ما أظن.

فقال اللورد هوايتفيلد وهو يحكّ أنفه مفكّراً: لا أظن ذلك، أليس كذلك يا بريدجت؟

فأجابته بريدجت قائلة: لقد كنت أظن أنه محبوب جداً من

الجميع، وأنا لم أرَه عن قرب إلا عندما جاء ليعالج كاحلي، وعندئذ وجدته شخصاً عزيزاً.

فقال هوايتفيلد مؤيّداً: أجل، لقد كان محبوباً من الجميع، مع أنني أظن أن شخصاً أو شخصين كانا على خلاف ذلك، وأظن أن سبب ذلك يرجع إلى عناده وغبائه.

- شخص أو شخصان؟ هل هما يعيشان هنا؟

فأومأ هوايتفيلد برأسه وقال: نعم، ففي مثل هذا المكان يوجد كثير من المنازعات والمشاحنات الصغيرة.

فردّ عليه لوك معقّباً بقوله: أجل، أظن ذلك.

وتردّد قليلاً وكأنه غير متأكّد من خطوته التالية ثم قال متسائلاً: أي نوع من الناس محبوب هنا عادة؟

وكان السؤال ضعيفاً، ولكنه حصل على ردّ سريع من بريدجت التي قالت: بنات رجال الدين وأخواتهم وزوجاتهم والممرّضات، ويوجد رجل واحد من بين كل ستّ من النساء.

فسأل لوك قائلاً: ولكن لا بدّ أن يكون هنا بعض الرجال، أليس كذلك؟

- بلى، يوجد السيد أبوت المحامي والطبيب الشاب الدكتور توماس الذي كان شريكاً للدكتور همبلبي والسيد ويك رجل الدين والمشرف على دار العبادة. ومَن أيضاً يا جوردون؟ آه! السيد ألزورثي الذي يملك محلاً للعاديّات، وهو رقيق إلى درجة كبيرة، ثم الميجور هورثون وكلابه البولدوغ.

فقال لوك: أظن أن أصدقائي ذكروا لي اسم سيدة ظريفة تعيش هنا أيضاً، كما قالوا لي إنها ثرثارة على ما أذكر.

فضحكت بريدجت وقالت: هذا الوصف ينطبق على نصف نساء القرية.

- تُرى ماذا كان اسمها؟ نعم، لقد تذكّرت الآن، اسمها بينكرتون.

فضحك اللورد هوايتفيلد ضحكة خشنة وقال: إن حظّك سيئ حقاً؛ فقد ماتت هي أيضاً. لقد صدمتها سيارة منذ أيام في لندن فماتت في الحال.

فعقّب لوك قائلاً باستخفاف: يبدو أن عندكم حالات موت كثيرة هنا.

فقال اللورد هوايتفيلد بسرعة: لا، مطلقاً؛ هذه القرية من أصحّ المناطق في إنكلترا، ولكنك لا يمكنك أن تحسب حساباً للحوادث لأنها يمكن أن تحدث لأي شخص.

ولكن بريدجت قالت بعد تفكير: الواقع أن عدّة حوادث موت قد وقعت في العام الأخير يا جوردون.

- هذا هراء يا عزيزتي!

وهنا قال لوك: هل كان موت الدكتور همبلبي نتيجة حادثة أيضاً؟

فهزّ اللورد هوايتفيلد رأسه ثم أجاب قائلاً: لا، لقد مات همبلبي بتسمّم حاد في الدم؛ فقد خُدش إصبعه بمسمار علاه

الصدأ أو شيء من هذا القبيل، ولكنه لم يعِر الأمر اهتماماً فتسمّم ومات في ثلاثة أيام.

ثم عقّبت بريدجت قائلة: هكذا حال الأطباء، مع أنهم معرّضون للعدوى والإصابة إذا لم يأخذوا حذرهم، ومع ذلك فقد كان الأمر محزِناً لأن قلب زوجته قد تحطّم.

فقال اللورد هوايتفيلد: لا فائدة من الثورة ضدّ القدر.

وهنا سأل لوك نفسه قائلاً: هل التسمّم إرادة القدر؟ ربما، ولكنه كان موتاً مفاجئاً.

ثم تذكّر ما قالته بريدجت، وهو أن عدّة حوادث موت وقعت في العام الأخير.

* * *

الفصل الرابع

كان لوك قد درس خطّته بعناية وأعدّ نفسه للبدء فيها دون توان عندما نزل كي يتناول الإفطار في اليوم الثاني. ولم تكُن العمّة الشغوفة بزراعة الحدائق موجودة، ولكن اللورد هوايتفيلد كان يتناول الإفطار ويرشف قهوة الصباح في حين كانت بريدجت قد انتهت من الإفطار ووقفت بالقرب من النافذة تلقي ببصرها إلى الخارج.

وبعد تبادُل تحيّات الصباح جلس لوك وقد وُضع أمامه طبق مُلئ بالبيض ثم قال: يجب عليّ أن أبدأ في العمل، ولكن أصعب شيء هو حمل الناس على الكلام. أنت تعرف ما أعنيه، فالناس ليسوا مثلك أو مثل بريدجت. فلو أنني سألتك مثلاً فستقول لي كل ما تعرفه، ولكن المشكلة أنك لا تعرف ما أرغب في معرفته عن المعتقدات التي ما تزال راسخة في بعض البِقاع النائية من العالَم، فمثلاً توجد قرية في مقاطعة ديفونشاير اضطُر راعي الكنيسة فيها إلى إزالة بعض الأحجار التي كانت بالقرب من كنيسته لأن الناس هناك كانوا يصمّمون على السير حولها كلما حدثت وفاة في القرية، وهو أمر غريب حقاً أن تبقى بعض العادات البدائية كامنة في قلوب الناس.

فقال اللورد هوايتفيلد: أعتقد أنك على حق، ما يحتاج الناس إليه هو التثقيف. تُرى هل ذكرت لك أنني تبرّعت هنا بمكتبة رائعة جداً؟ لقد كانت منزلاً اشتريته بثمن بخس، وقد أصبح من أفضل المكتبات الآن.

وبحزم أوقف لوك تيار الحديث من التحوّل إلى أعمال اللورد هوايتفيلد فقال: عظيم، هذا عمل طيب! لا بدّ من أنك تحقّقت من أصل الجهل المنتشر هنا مثل العادات القديمة والخرافات، وهذا ما أنشده بطبيعة الحال.

ثم أتبع ذلك بسرد ما يقرب من صفحة كاملة من كتاب كان قد قرأه من قبلُ يتكلّم عن ذلك الموضوع، ثم ختم كلامه بقوله: وتُعَدّ حالات الموت أفضل شيء يبدأ به المرء في البحث للوصول إلى ما يريده لأن تقاليد الدفن وعاداته تدوم أكثر من التقاليد والعادات الأخرى.

وهنا قالت بريدجت وهي ما تزال بالقرب من النافذة: أنا أوافقك على أنهم يستمتعون بالجنازات.

فقال لوك: لقد فكرت في أن أبدأ بالحصول على حوادث الموت الأخيرة في هذه القرية وأعرف مَن هم أقارب الموتى لأتحدّث إليهم، ولا شكّ عندي في أنني سأُوفَّق في معرفة ما أريده قريباً، فمَن الذي يمكنه أن يعطيني تلك المعلومات؟ الكاهن؟

- من المحتمل أن يهتم السيد ويك كثيراً بهذا الموضوع؛ فهو رجل عجوز ظريف وأتوقع أن يُدلي إليك بكثير من المعلومات.

- حسناً، هل لديك فكرة عن الذين ماتوا في السنة الأخيرة؟

فتمتمت بريدجت قائلة: دعني أتذكّر. يوجد كارتر الذي كان يملك مطعم النجوم السبعة، ذلك المطعم المكروه القائم على شاطئ النهر.

وهنا قال اللورد هوايتفيلد: كان عربيداً وقحاً... لقد تخلّصنا منه.

ثم أضافت بريدجت قائلة: كما توجد السيدة روز، وتومي بيرز الصغير الذي كان ولداً صغيراً، وتوجد تلك الفتاة المدعوة آمي.

وتغيّر صوت بريدجت قليلاً وهي تنطق بالاسم الأخير، فسألها لوك قائلاً: آمي؟

- آمي جيبز، لقد كانت خادمة هنا ثم ذهبت إلى الآنسة وينفليت، وقد قاموا بالتحقيق في موتها.

- لماذا؟

فقال اللورد هوايتفيلد: لأن الفتاة كانت غبيّة. لقد خلطت بين بعض الزجاجات في الظلام.

فأوضحت بريدجت ذلك قائلة: لقد تناولت زجاجة فيها طلاء للقبعات ظناً منها أنه شراب للسعال.

رفع لوك حاجبيه تعجّباً وقال: يا لها من مأساة!

فعقّبت بريدجت قائلة: كانت توجد فكرة تقول بأنها قد تكون فعلت ذلك عمداً لخلافها مع أحد الشبّان.

قالت ذلك ببطء وكأنها لم تكُن تودّ الإدلاء بذلك، ثم أعقب

ذلك صمتٌ حتى إن لوك شعر بأن في الجوّ شيئاً. وتذكر أن اسم ماري جيبز هو أحد الأسماء التي ذكرتها الآنسة بينكرتون العجوز، كما ذكرت اسم ولد صغير هو تومي، ولكن رأيها فيه لم يكُن حسناً كرأي بريدجت فيه. وكان لوك متأكداً من أنها ذكرت اسم كارتر أيضاً. ثم نهض من مقعده وهو يقول دون اهتمام: هذا الحديث يجعلني أشعر بأنني أنبش قبور الموتى! وتقاليد الزواج تثير الاهتمام أيضاً، إلا أنه من الصعب حمل الناس على الكلام عنها.

فقالت بريدجت: أظن أنك على حق في هذا.

- يجب عليّ أن اتّصل بالطبقات الدنيا في المجتمع كي أحصل على ما أريده، وسأذهب إلى الأبرشية أولاً لأرى ما يمكنني معرفته هناك، وقد أذهب إلى مطعم النجوم السبعة بعد ذلك. ماذا عن ذلك الولد الصغير ذي الخصال السيئة؟ هل ترك أقارب حزنوا عليه؟

- والدته السيدة بيرز تملك محلاً لبيع التبغ والورق في هاي ستريت.

- حسناً، سأذهب الآن.

وبحركة سريعة غادرت بريدجت مكانها الذي كان بالقرب من النافذة وقالت: أظن أنني سأذهب معك، هذا إذا لم يكُن لديك مانع.

- بالطبع لا.

قال ذلك بحرارة لم يكُن يشعر بها حقاً، ثم سأل نفسه عمّا إذا كانت قد لاحظت أنه وافق على طلبها الذي لم يصادف هوى

في نفسه. لقد كان يريد أن يتجاذب الحديث مع الكاهن العجوز وحده دون أن يكون بالقرب من أي شخص على درجة كبيرة من الذكاء ودقّة الملاحظة يراقبه، ولكنه قال في نفسه: حسناً، مهمّتي في أن أؤدّي دوري بصورة مقنعة.

وهنا قالت بريدجت: لوك، هلاّ انتظرتني قليلاً حتى أستبدل حذائي.

وشعر بأن نُطقها باسمه لوك مجرداً جعله يحسّ بإحساس غريب، ولكن بماذا كان يتوقّع أن تناديه ما دامت قد وافقت على خُطة جيمي ورضيت بأن يكون أحد أبناء عمومتها؟ عندئذ من غير المتوقّع أن تدعوه السيد فيتز ويليام. وهنا قال في نفسه: ماذا تظن في الأمر كله؟ تُرى ماذا تظن؟

من الغريب أن ذلك لم يسبّب له أي قلق من قبل؛ فقد كانت ابنة عم جيمي مجرّد شخص لم يُعنَ بتخيّله، واكتفى بقول صديقه بأن بريدجت ستكون على ما يرجوه، وقد كان يتصوّرها فتاة شقراء لها هيئة السكرتيرات وجميلة إلى درجة تكفي لاصطياد رجل غني، ولكنه وجدها ذات شخصية قوية وذكاء بالغ وعقل راجح، فضلاً عن أنه لم تكُن لديه أية فكرة عن رأيها فيه، وعلم أنها ليست بالفتاة التي يسهل خداعها. ثم أفاق من تفكيره على صوتها وهي تقول: أنا مستعدة الآن.

كانت قد اقتربت منه بخفة حتى أنه لم يشعر باقترابها. ولم تكن ترتدي قبعة، وعندما خرجا من المنزل شعرا بالرياح التي تعبث بشعرها حتى أحاط بوجهها، فقالت بريدجت وهي تبتسم: أنت في حاجة إليّ كي أُريك الطريق.

فأجابها قائلاً: هذا عطف كبير منك.

ثم سأل نفسه عمّا إذا كان قد لاحظ بسمة ساخرة عابرة، ثم أدار بصره إلى البناء الشامخ الذي تركاه وقال بغضب مكبوت: يا له من بناء مكروه! ألم يكُن في مقدور أحد إيقافه؟

فأجابته بريدجت: الرجل الإنكليزي يعتبر منزله قلعةً له، وهكذا هي حال جوردون، فهو يعشق هذا المنزل.

وشعر بأن ملاحظته تدلّ على عدم الذوق، ولكنه لم يكُن قادراً على التحكم في لسانه فقال: أليس هذا منزلك القديم؟ هل تعشقين ما ترينه الآن؟

وهنا نظرت إليه وهي تبتسم بسرور خفي ثم تمتمت قائلة: أنا أكره أن أحطّم الصورة التي بدأت برسمها في مخيّلتك، ولكن الواقع أنني غادرت هذا المنزل قبل أن أتجاوز السنتين والنصف من عمري، وهكذا ترى أن تأثير المنزل القديم الذي كان لي لا يؤثّر فيّ، بل أنا لا أتذكّر عنه أي شيء.

فقال لوك: أنت على حق، معذرة.

وهنا ضحكت بريدجت وقالت: نادراً ما تكون الحقيقة مليئة بالعواطف.

قالت ذلك وفي صوتها سخرية مريرة أذهلته، فشعر بوجهه يحمرّ خجلاً، ثم أدرك أن تلك المرارة لم تكُن موجّهة إليه؛ فقد كانت سخريتها هي ومرارتها هي. وصمت لوك، ولكنه ازداد عجباً من بريدجت كونواي.

وبعد مسيرة خمس دقائق وصلا إلى الكنيسة والأبرشية

المجاورة لها ووجدا رجل الدين في مكتبه. وكان السيد ويك رجلاً ضئيل الجسم عجوزاً محني الظهر ذا عينين زرقاوين شارد الفكر، ويبدو أنه قد سُرّ من الزيارة إلا أنه كان في دهشة منها، وهنا قالت بريدجت: السيد فيتز ويليام ينزل عندنا في آسن مانور وهو يريد استشارتك بشأن كتاب يقوم بتأليفه.

أدار السيد ويك نظره نحو الرجل الأصغر منه مستفسراً، وهنا قام لوك بالإيضاح عن موضوعه. وكان في حال عصبية لسببين، الأول منهما أن المستمع إليه أعلم منه بالمعتقدات الشعبية والتقاليد أكثر ممّا يمكن لقارئ عابر الحصول عليه من بعض الكتب، والسبب الثاني أن بريدجت كانت بالقرب منه تستمع إليه. ولكن شعر لوك بالراحة النفسية عندما وجد أن اهتمام السيد ويك ينحصر في الآثار الرومانية بعد أن اعترف بأنه لا يعرف إلا القليل عن المعتقدات القديمة والسحر، ثم ذكر بعض الأشياء التي تتعلّق بتاريخ ويتشوود وأعلن استعداده أن يصحب لوك إلى قمّة الهضبة المجاورة إلى بقعة تُسمى مجمع السحرة، ثم أعلن أسفه لأنه ليس لديه أية معلومات إضافية يمكن أن يُدلي بها.

ومع أن لوك شعر بالراحة في قرارة نفسه إلا أنه أظهر استياءه لقلّة المعلومات التي حصل عليها، لذا بدأ يوجّه إلى رجل الدين بعض الأسئلة عن المعتقدات بالموت، وهنا هزّ السيد ويك رأسه برقّة وقال: أظن أنني آخِر شخص يمكنه أن يعلم شيئاً عن ذلك لأن المتردّدين على هذه الدار لا بدّ من أن يبذلوا كل جهدهم كي لا تصل إلى أُذني أية كلمة تتعارض مع الدين.

- طبعاً.

- ومع ذلك لا يوجد لديّ شكّ في بقاء كثير من المعتقدات

لأن هذه المجتمعات القروية ما تزال متأخّرة جداً.

وهنا قال لوك: لقد سألت الآنسة كونواي عمّا إذا كانت تتذكّر أسماء الذين ماتوا هنا حديثاً ظناً منّي أن أتوصّل إلى شيء من هذا الطريق، وأعتقد أنك قد تكون قادراً على إعطائي قائمة بالأسماء كي يمكنني أن أختار من بينها ما أظنه قد يفيدني في تحرّياتي.

- نعم، نعم، هذا أمر ممكن. دعني أتذكّر، لقد حدثت عدّة وَفَيات لا بدّ من أن مرجعها إلى ذلك الطقس الغادر والشتاء القاسي، ثم الكثير من الحوادث التي لا بدّ من أنها بمثابة نوبة من سوء الحظّ.

فقال لوك: أحياناً يُقال إن نوبة سوء الحظّ يكون سببها وجود شخص معيّن.

- أجل، ولكنني لا أظن أن أناساً غرباء قد حلّوا هنا، أعني شخصاً أو أشخاصاً غير عاديين، أنا متأكّد من أنني لم أسمع شيئاً مثل هذا، ولكنني أعود فأقول إنني ما كنت لأسمع تلك الشائعات. والآن دعني أتذكّر، فمنذ وقت قريب جداً مات الدكتور همبلبي والمسكينة لافينيا بينكرتون. لقد كان الدكتور همبلبي رجلاً طيباً و...

فقاطعته بريدجت قائلة: إن السيد فيتز ويليام يعرف أصدقاء له.

- هل تعرف أصدقاء له؟ هذا أمر مؤسف جداً، سيفتقده الكثيرون. لقد كان له أصدقاء كثيرون.

فقال لوك: وكان له أعداء أيضاً... ثم أضاف بسرعة قائلاً: أنا

أردّد ما قاله لي أصدقائي.

فتنهد السيد ويك ثم قال: لقد كان رجلاً يقول ما يدور بخاطره ولم يكُن بالرجل اللبق دائماً، وهذا ما سبب تبرماً عند بعض الناس، ولكنه كان محبوباً جداً من الأوساط الفقيرة.

فقال لوك دون اهتمام: هل تعلم أنني أشعر بأن الواقع الذي لا يمكن هضمه هو أن وراء كل موت نفعاً لشخص ما، لا أعني بذلك النفع المادي وحده.

فأومأ الكاهن برأسه وهو يفكر ثم قال: أعرف ما تعنيه، فنحن نقرأ في نعي شخص ما أن الجميع يأسف على موته، ولكنني أظن أن ذلك يقع في حالات قليلة نادرة، أما في حال المسكين الدكتور همبلبي فلا يمكن أن نُنكر أن شريكه الدكتور توماس لا بدّ من أن مركزه سيتحسن كثيراً بعد موت الدكتور همبلبي.

- كيف ذلك؟

- أظن أن الدكتور توماس طبيب قدير، ومن المؤكّد أن همبلبي كان يقول ذلك دائماً، ولكنه لم يلقَ نجاحاً طيباً هنا، وأظن أن الدكتور همبلبي الذي كان يتمتّع بجاذبية مؤكّدة كان ألمع منه ولا سيما أن توماس لم يكُن له أي تأثير في نفس مرضاه، وأظن أن ذلك يسبب له قلقاً، وهذا ما جعله في حال أسوأ مما كان يجب أن يكون عليها لأنه قد أصبح أكثر اضطراباً وأقلّ حديثاً. ثم لاحظت تغييراً يثير الدهشة بعد موت همبلبي، فقد أصبح توماس أكثر ثقةً بنفسه ذا شخصية أخرى. ولم يكُن هو وهمبلبي على اتفاق دائماً كما أعتقد؛ فقد كان توماس من أشدّ المؤيّدين لطرُق العلاج الحديثة في حين كان همبلبي يفضّل التمسك بالطرُق القديمة،

وقد دارت مشاحنات بين الاثنين أكثر من مرّة في هذا الموضوع وغيره مما يُعَدّ من المسائل الشخصية، ولكنني لست بالرجل الذي يردّد الشائعات.

فقالت بريدجت برقة ووضوح: ولكنني أظن أن السيد فيتز ويليام يجب أن يسمعك تردّد تلك الشائعات.

وهنا نظر إليها لوك نظرة سريعة مرتبكة، فهزّ السيد ويك رأسه بشكّ ثم راح يقول: أخشى أن أقول إن المرء يشعر باهتمام فيما يتعلّق بشؤون جيرانه. لقد كانت روز همبلبي فتاة جميلة جداً، لذا لا يعجب المرء إذا عرف أن جيوفري توماس قد شُغف حباً بها، وبالطبع يقدّر المرء وجهة نظر همبلبي بأن الفتاة ما تزال صغيرة السن وشبه مغمورة هنا ولم تسنح لها فرصة الاختلاط بأحد أو رؤية شبّان آخرين.

فقال لوك: هل اعترض؟

- بكل تأكيد، وذكر أنهما ما زالا صغيرَين جداً، وبطبيعة الحال فالشباب يمتعض إذا قيل له ذلك، وكان من الواضح وجود عدم ارتياح بين الرجلَين، ولكن يجب أن أقول بأنني متأكّد من أن الدكتور توماس تأثر تأثراً عميقاً وبالغاً لوفاة شريكه.

- قال لي اللورد هوايتفيلد بأن الدكتور همبلبي مات متأثراً بتسمّم الدم.

- أجل، مجرّد خدش أُصيب بتلوث، الأطباء يتعرّضون إلى أخطار جسيمة في أثناء تأديتهم واجباتهم يا سيد فيتز ويليام.

فقال لوك: هذا حقيقي.

- ولكنني أرى أنني ابتعدت في حديثي عمّا كنا نتناقش فيه، وأظن أنني لست سوى رجل عجوز ثرثار. لقد كنا نتحدث عن بقاء العادات المرتبطة بالموت وحوادث الموت التي وقعت منذ وقت قريب، فمثلاً تلك لافينيا بينكرتون التي أدت خدمات للكنيسة، وتلك الفتاة المسكينة آمي جيبز التي قد يكون في موتها شيء مما تبحث عنه يا سيد فيتز ويليام. أنت تعلم أنهم يظنون أن الموت قد يكون انتحاراً، وتوجد لتلك الفتاة عمّة محترمة جداً، ولكنها لم تكُن على صلة قوية بابنة أخيها، وتلك العمّة ثرثارة كبيرة. ثم ذلك الولد تومي بيرز. يا للمسكين! أظنه لم يكُن محبوباً من أحد لأنه قد فُصل من مكتب البريد حيث كان يعمل ساعياً، ثم عمل في مكتب السيد آبوت ولكنه فُصل أيضاً بعد مدة قصيرة، وأظن أن السبب كان يرجع إلى أنه اطّلع على بعض الخطابات الشخصية، ثم عمل في آسن مانور مساعداً للبستاني، أليس كذلك يا آنسة كونواي؟ ثم اضطُر اللورد هوايتفيلد إلى فصله لوقاحته الزائدة. لقد شعرت بالأسى الشديد نحو والدته التي تكدح في سبيل عيشها، ولكن الآنسة وينفليت كانت طيبة القلب فعيّنته في وظيفة منظّف لزجاج النوافذ، وقد اعترض اللورد هوايتفيلد على ذلك في أول الأمر ولكنه تراجع فجأة، ومن دواعي الأسى أنه فعل ذلك.

- لماذا؟

- لأن الصبي قُتل بسبب ذلك، فقد كان ينظّف النافذة العليا في مبنى المكتبة، ثم قام بمحاولة عمل حركات طائشة كالرقص على حافة النافذة أو شيء من هذا القبيل ففقد توازنه أو أصابه الدوار فوقع وأُصيب إصابة خطيرة، ولم يستردّ وعيه بل مات بعد وصوله إلى المستشفى بساعات قلائل.

فسأل لوك باهتمام قائلاً: هل رآه أحد وهو يسقط؟

- لا، لأنه كان في الناحية التي تطلّ على الحديقة وليس في الناحية التي تطلّ على واجهة المكتبة، وقيل بأنه قد مرّ عليه ما يقرب من نصف ساعة وهو ملقى قبل أن يراه أحد.

- مَن الذي رآه؟

- السيدة بينكرتون، السيدة التي ذكرتها لك الآن وقلت لك إنها قد قُتلت لسوء الحظ في حادثة منذ أيام. يا للمسكينة! لقد كانت في حال نفسية سيئة، وكانت قد أخذت تصريحاً بقطع بعض النباتات من الحديقة ووجدت الصبي ملقى حيث سقط.

فقال لوك وهو يفكّر: لا بدّ أنها كانت صدمة غير سارة لها.

- إن انتهاء حياة في مقتبل العمر فجأة أمر يبعث على الحزن حقاً، وقد تكون الأخطاء التي كان تومي يرتكبها راجعة إلى حيوية كبيرة فيه.

فقالت بريدجت: لقد كان شرساً إلى حد يجعله مكروهاً، وأنت تعلم ذلك يا سيد ويك. لقد كان يعذّب الكلاب والقطط الضالة ويضرب الأولاد الصغار.

فهزّ السيد ويك رأسه بحزن ثم قال: أعلم ذلك، ولكنك تعلمين أن القسوة يكون مرجعها إلى بطء نمو المخيّلة أحياناً يا آنسة كونواي، لذا فالرجل إذا كانت عقليّته لم تنضج بعدُ وظلّت مثل عقلية طفل فالقسوة التي يتعامل بها لا يمكن لرجل عادي القيام بها في حال الجنون، وعلى المرء أن يبتعد عن الأمور الصبيانية دائماً.

ثم هزّ رأسه ومدّ يديه بحركة تدلّ على الاستسلام، وهنا قالت

بريدجت فجأة بصوت أجش: أجل، أنت محق فيما تقول، فالرجل الذي له عقلية طفل هو أشدّ ما يخيف في العالَم.

نظر إليها لوك بشيء من الفضول، وخطر له أنها تعني شخصاً معيّناً. ومع أن اللورد هوايتفيلد كان يشبه الأولاد في كثير من تصرفاته إلا أنه كان متأكّداً من أنها لم تكُن تفكر فيه، فاللورد هوايتفيلد كان غريباً بعض الشيء ولكنه لم يكُن مخيفاً إلى هذا الحد بالتأكيد.

وزاد عجب لوك فيتز ويليام كثيراً فيما تفكّر فيه بريدجت.

* * *

الفصل الخامس

راح السيد ويك يردّد بضعة أسماء محدّثاً نفسه قائلا: دعني أتذكّر، المسكينة السيدة روز ويل العجوز وطفل أسرة بيرز وهاري كارتر... هؤلاء كلهم لم يكونوا في كنيستي كما تعلم. ثم إن نوبة البرد التي جاءت في شهر آذار قضت على حياة بِن ستانيوري العجوز ذي الاثنين والتسعين عاماً.

فقالت بريدجت: وماتت آمي جيبز في شهر نيسان.

- أجل، يا للفتاة المسكينة! لقد كانت غلطة كبيرة.

ورفع لوك بصره ليجد بريدجت تراقبه، فلما التقى بصره ببصرها خفضت من ناظريها بسرعة فعلم أنه يوجد شيء لا يعلمه، شيء يتعلّق بتلك الفتاة آمي جيبز. وعندما استأذنا من الكاهن في الانصراف وأصبحا في الخارج قال: مَن تلك الفتاة آمي جيبز؟

ومرّت دقيقتان قبل أن تجيب بريدجت بصوت لاحظ فيه لوك التحفّظ: لقد كانت آمي واحدة من أكثر الخادمات تكاسلاً وعدم الكفاءة.

- ألهذا السبب فُصلت من عملها؟

- لا، لقد كانت تتأخّر في الخارج عن المواعيد المحدّدة

بصحبة أحد الشبّان، وجوردون رجل متمسّك جداً بالأخلاق والتقاليد القديمة، وقد أنذر الفتاة ولكنها ردّت على الإنذار بوقاحة.

فسألها لوك: هل كانت جميلة؟

- جميلة جداً.

- أهي الفتاة التي شربت طلاء القبعات خطأً ظناً منها أنه شراب ضد السعال؟

- نعم.

- أليس هذا عملاً يدلّ على الغباء؟

- بلى، هذا غباء شديد.

- هل كانت غبية إلى هذا الحد؟

- لا، لقد كانت في غاية الذكاء.

واختلس لوك نظرة إليها فوجدها في حيرة من أمرها؛ إذ كانت إجاباتها بنبرة واحدة دون أي انفعال أو اهتمام ممّا أكّد لديه أن وراء إجاباتها ما لم تفصح عنه الكلمات. وفي تلك اللحظة وقفت بريدجت لتتحدّث إلى رجل طويل رفع لها قبّعته وحيّاها بحرارة، وبعد كلمتين قدّمت بريدجت لوك إلى الرجل قائلة: هذا أحد أبناء عمومتي السيد فيتز ويليام وهو يقيم عندنا في آسن مانور، وقد حضر ليؤلّف كتاباً. هذا هو السيد آبوت.

فنظر لوك إلى السيد آبوت ببعض الاهتمام. إذن هذا هو المحامي الذي أُلحق تومي بيرز بخدمته. وكان لوك يشعر بتحامل

لا أساس له من المنطق ضدّ المحامين عامة، وإن كان ذلك التحامل مبنياً على أساس أن الكثير من الساسة قد جاؤوا من زُمرة المحامين، ولأنهم على حذر دائماً فلا يعطون إجابات صريحة واضحة، وكان ذلك يسبب له ضيقاً كبيراً. ومع ذلك فالسيد آبوت لم يكُن يشبه الصورة التي يرسمها المرء للمحامين، فلم يكُن نحيفاً ولا معقود اللسان، بل كان رجلاً ضخماً ذا طابع مرح توجد تجاعيد صغيرة في جوانب عينيه اللتين كانتا تدلاّن على ذكاء أكثر ممّا يتّضح للناظر إليهما للمرة الأولى.

- يؤلّف كتاباً؟ قصّة؟

فأجابت بريدجت: إنه يؤلّف كتاباً عن المعتقدات.

فقال المحامي: لقد حضرت إلى المكان المناسب؛ فهنا الكثير ممّا يثير الاهتمام.

فقال لوك: هكذا قيل لي، وربما كان في مقدورك مساعدتي بعض الشيء لأنه ربما مرّت بك أعمال غريبة أو أنك على علم بعادات ما زالت تمارَس، وهذا ما يدعو إلى الاهتمام.

- حسناً، ولكنني لا أعلم شيئاً عن ذلك، ربما...

فسأله لوك قائلاً: هل يوجد كثير ممن يعتقد بالأشباح؟

- لا يمكنني أن أبتّ برأي في هذا الشأن حقاً.

- ألا توجد منازل مسكونة بالأشباح؟

- أنا لا أعرف شيئاً عن تلك الأشياء.

فقال لوك: توجد المعتقدات التي تتّصل بموت طفل، أعني

موت الطفل في حادث مفاجئ. يُقال إن شبح الطفل يحوم حول مكان مصرعه، ويُقال إن ذلك لا يحدث إذا كان الميت طفلة، وهو أمر يدعو إلى الاهتمام.

فقال السيد آبوت: أنا لم أسمع عن ذلك من قبل.

ولم يكُن يوجد ما يدعو إلى الدهشة من ذلك لأن لوك كان قد ابتدع ما ذكره عن موت الأطفال لتوّه، ثم قال لوك: يبدو أنه كان بالقرية صبي يُدعى تومي وكان يعمل في مكتبك يوماً ما، وأعتقد أن بعض الأهالي يظن أن شبحه يسير.

فازداد احمرار وجه السيد آبوت وقال: هل تعني تومي بيرز؟ لقد كان صبياً لا يصلح لشيء وكان يتجسس على غيره.

- يبدو أن الأرواح تكون شريرة عادة، وقليلاً ما تقوم أرواح المواطنين الصالحين بزيارة عالمنا هذا بعد أن تفارق الروح الجسد.

- ما هذا الذي تقوله؟! مَن الذي رأى شبحه؟

فقال لوك: في العادة يصعب تحديد مصدر تلك الأقوال لأن الناس يرفضون أن يُدلوا بأقوالهم بصراحة، ومع ذلك فالجو مليء بتلك الشائعات.

- أجل، أظن أنك على حق.

ثم قام لوك بتغيير مجرى الحديث فقال: أظن أن أفضل مصدر لاستسقاء المعلومات هو الطبيب المحلّي لأنه يسمع الكثير عن الحالات التي يقوم بعلاجها، ولا سيما من بين أبناء الطبقة الفقيرة، ويوجد ما يسمعه عن المعتقدات والطلاسم، ومن المحتمل أن

يسمع عن شراب الحب وغير ذلك من الخرافات.

- في هذه الحال عليك بالدكتور توماس، وهو رجل طيّب دقيق يتّبع أحدث طرُق العلاج، على عكس المسكين الدكتور همبلبي.

- أظن أن الأخير كان رجلاً رجعياً، أليس كذلك؟

- بلى، لقد كان رجلاً غبياً عنيداً من أسوأ طراز.

فسألته بريدجت قائلة: ألم تحدث بينكما مشاحنة كبيرة بخصوص مشروع المياه؟

ومرّة أخرى احمرّ وجه السيد آبوت ثم قال بحدّة: لقد كان همبلبي يقف في وجه التقدّم بمعارضته للمشروع، وكان فظاً في أقواله لم ينمّق كلماته، حتى إن بعض ما قاله لي كان يجب أن يعاقَب عليه قانوناً.

فتمتمت بريدجت قائلة: ولكن المحامين لا يلجؤون إلى القانون، أليس كذلك؟

وهنا ضحك آبوت بحرارة وزال الغضب الذي كان يشعر به بنفس السرعة التي ثار به من قبل ثم قال: أنت تقولين الحقيقة يا آنسة بريدجت، فنحن الذين نحيا وسط القانون نعرف الشيء الكثير عنه. حسناً، لقد آن لي أن أذهب في طريقي، وأرجو أن تتصل بي إذا كان لديك أي سؤال يا سيدي.

فقال لوك فيتز ويليام: أشكرك، سأفعل ذلك.

ثم سار لوك مع بريدجت التي قالت: لقد لاحظت أنك تستخدم طريقة الإدلاء بتصريحات ثم تراقب وقعها على السامع.

فقال لوك: أتعنين أن طريقتي لا تتميّز بالصدق الكامل؟

- لقد لاحظت ذلك.

فشعر بقليل من الارتباك، ثم تردّد فيما سينطق به بعد ذلك. وقبل أن ينطق حرفاً سمعها تقول: إذا أردت أن تعرف أكثر ممّا عرفت عن آمي جيبز فبإمكاني أن أقودك إلى شخص يمكنه مساعدتك.

- ومَن ذلك الشخص؟

- الآنسة وينفليت؛ فقد ذهبت آمي إليها بعد أن غادرت آسن مانور، وكانت عندها عندما ماتت.

وأخذ لوك بما قالته بريدجت وقال: حسناً، أشكرك جداً.

- إنها تقيم في منطقة قريبة من هنا.

وفي تلك اللحظة كانا يخترقان حديقة القرية عندما أومأت بريدجت برأسها ناحية المنزل الكبير الذي رآه لوك في اليوم السابق وقالت: هذا هو منزل ويشرهول، وهو مكتبة الآن.

وبالقرب من المنزل كان يوجد بيت صغير درَجاته ناصعة البياض، وكانت الستائر المسدلة على نوافذه بيضاء نظيفة أيضاً. دفعت بريدجت بوابة الحديقة بيدها وتقدّمت نحو درَج المنزل، وفي تلك اللحظة فُتح الباب وخرجت منه سيدة عجوز تخيّلها لوك عجوزاً قروية عانساً، وكانت ترتدي ملابس نظيفة أنيقة وقبّعتها ترتكز على رأسها باستقامة، وكان وجهها سمحاً وعيناها تدلاّن على ذكاء، فأوحى منظرها إلى لوك بأنه منظر الأغنام اليونانية ذوات اللون الأسود، وبدت الدهشة والعجب في عينيها.

قالت بريدجت: صباح الخير يا آنسة وينفليت، هذا هو السيد فيتز ويليام، وهو يؤلّف كتاباً عن عادات القرويين والموت وغير ذلك من الأشياء المرعبة.

فقالت آنسة وينفليت: آه، هذا أمر مثير جداً!

ثم ابتسمت له ابتسامة تشجيع، وهنا تذكّر لوك الآنسة بينكرتون، ثم قالت بريدجت بصوت رتيب: لقد فكرت في أنه ربما كان لديك شيء تقولينه عن آمي.

فقالت الآنسة وينفليت: آمي؟ نعم، آمي جيبز.

وشعر لوك بأن شيئاً جديداً طرأ على فكرها فأثّر في ملامحها، ثم رآها تعود إلى داخل المنزل وكأنها قد وصلت إلى قرار ثم قالت: تفضّلا بالدخول، يمكنني أن أخرج فيما بعد لأنه لا يوجد ما يدعو إلى العجلة؛ فكل ما كنت سأفعله هو شراء بعض الحاجات المنزلية.

وكانت غرفة الجلوس رتيبة ونظيفة تفوح منها رائحة اللافندر، وكانت توجد بعض اللوحات المرسومة على الجدار فضلاً عن صور الأقارب. وبعد أن جلس الجميع قالت الآنسة وينفليت بلهجة اعتذار: يؤسفني أنني لا أدخن لذا ليس في مقدوري أن أقدّم لفافات التبغ لك، ولكنني أرجو أن تدخن إذا أردت ذلك.

فرفض لوك. وجلست الآنسة وينفليت على مقعدها باستقامة وراحت تتفحص ضيفها بُرهة، ثم خفضت من بصرها كأنها قد رضيت عمّا رأته وقالت: هل تريد أن تعرف شيئاً عن تلك المسكينة آمي؟ لقد كان الأمر كله محزناً جداً وقد سبّب لي تعاسة شديدة، والسبب هو خطأ فادح.

فسألها لوك قائلاً: هل كان يوجد ما يدعو إلى الظن بأن الأمر لا يعدو انتحاراً؟

فهزّت الآنسة وينفليت رأسها وقالت: لا، لا، لا أظن ذلك أبداً؛ فلم تكُن آمي من ذلك الطراز.

فسألها لوك قائلاً: إذن من أي طراز كانت؟ أودّ أن أسمع رأيك فيها.

فقالت الآنسة وينفليت: حسناً، بالطبع لم تكُن خادمة جيدة قطّ، ولكن على المرء أن يكون شاكراً للحصول على أي خادمة. لقد كانت مهملة جداً في عملها وتحب الخروج دائماً. حسناً، لقد كانت صغيرة السن والفتيات على تلك الحال في هذه السن ولا يقدّرن أن وقتهن ليس ملكاً لهن بل ملك للذين يقمن بخدمتهم.

وكان لوك يبدو بمظهر المدرِك المشفق عليها وهو يستمع إليها، ثم أكملت الآنسة وينفليت حديثها قائلة: لم تكُن من ذلك الطراز الذي أهتمّ به، بل كانت من الطراز الجريء، ولا أحب أن أذكر الشيء الكثير الآن ولا سيما بعد موتها لأن المرء يشعر بأنه يفعل شيئاً لا يتفق مع المروءة وهو يفعل ذلك، إلا أنني أظن أن ذلك ليس سبباً وجيهاً لإخفاء الحقيقة.

فأومأ لوك برأسه، وتأكّد له أن الآنسة وينفليت تختلف عن الآنسة بينكرتون في أنها تتمتع بعقل منطقي أكثر منها. وراحت تُكمل قولها: كانت تحب الإطراء وكانت مغترّة بنفسها، فمثلاً السيد ألزورثي الذي يملك محلّ العاديّات الجديد، وهو رجل محترم يعرف الرسم بالألوان المائية قد رسم صورة أو صورتين لوجه الفتاة، وأظن أن ذلك وضع في رأسها أفكاراً جديدة، وكانت

تميل إلى الشجار مع الشاب الذي خُطبت له، وهو جيم هارفي الذي يعمل ميكانيكياً في إحدى ورشات تصليح السيارات، وكان يحبها جداً.

وتوقّفت الآنسة وينفليت بُرهة ثم استطردت قائلة: لن أنسى تلك الليلة الكئيبة، فقد كانت آمي متوعّكة بعض الشيء وتسعل بشدّة، وكانت قد ذهبت لزيارة الطبيب في عصر ذلك اليوم.

فسألها لوك بسرعة قائلاً: هل ذهبت إلى الدكتور همبلبي أم الدكتور توماس؟

- الدكتور توماس، وقد أعطاها زجاجة الشراب ضد السعال التي أحضرَتها معها، ثم توجّهت إلى فراشها في وقت مبكر، وأظن أن الساعة كانت الواحدة بعد منتصف الليل عندما بدأت الضجة؛ فقد سمعت صرخة مكتومة مفزعة فقمت فتوجّهت إلى بابها، ولكنه كان مغلقاً من الداخل، فناديتها ولكنني لم أتلقَّ رداً. وكانت الطبّاخة معي وكنت أنا وهي مضطربتَين جداً، ثم ذهبت إلى الباب الأمامي، ولحسن الحظّ كان الشرطي المتجوّل ريد يمرّ في نوبته فناديناه، فذهب إلى الجزء الخلفي من المنزل وتمكّن من تسلّق السطح، ولما وجد نافذتها مفتوحة أصبح من السهل عليه الدخول وفتح الباب. يا للفتاة المسكينة! لقد كانت في حال سيئة ولم يتمكّنوا من عمل أي شيء لها، ثم ماتت في المستشفى بعد وصولها إليه بساعات قلائل.

- هل كان ما شربته طلاء قبّعات؟

- نعم، لقد قيل إن السبب هو تسمم ناتج من حامض الأوكساليك، وكانت الزجاجة في حجم زجاجة شراب السعال

التي كانت موضوعة على الرف، في حين أنني وجدت زجاجة طلاء القبعات بالقرب من فراشها، ولا شكّ في أنها تناولت تلك الزجاجة خطأً بسبب الظلام فوضعتها بالقرب منها استعداداً لتناول جرعة منها إذا شعرت بالحاجة إلى ذلك، وهذه هي النظرية التي وصل إليها التحقيق.

ثم توقّفت الآنسة وينفليت وراحت عيناها اللتان تشبهان عيني الماعز تنظران إلى لوك الذي شعر بأن وراء تلك النظرة شيئاً خفياً وأن في قصّتها شيئاً لم يُذكَر بعد، كما شعر شعوراً قوياً بأنها تودّ أن يكون على علم بذلك. وسادت صمت طويل، وشعر لوك بأنه كالممثّل الذي لا يعرف دوره فقال بتردّد: وهل تظنين أنت أن الأمر كان مجرّد انتحار؟

فقالت الآنسة وينفليت مباشرة: لا بالطبع، لأنها لو كانت قد عزمت على الانتحار لكانت قد اشترت شيئاً لذلك، ولا سيما وأن تلك الزجاجة قديمة ولا بدّ من أنها كانت عندها منذ سنوات. على أية حال لقد أخبرتك بأنها لم تكُن من ذلك الطراز.

فسألها لوك قائلاً: ماذا تظنين إذن؟

- أظن أن الأمر حادثة يؤسف لها.

وفي اللحظة التي شعر فيها لوك بأن عليه بذل مجهود يائس حدث شيء حوّل مجرى الحديث، ولم يكُن ذلك الشيء إلا صوت احتكاك بالباب ومواء قِطّ في الخارج، فانتصبت الآنسة وينفليت واقفة وأسرعت تفتح الباب لتدخل منه قطّة فارسية جميلة. ونظرت الهرّة إلى لوك ثم قفزت لتستقرّ فوق ذراع الآنسة وينفليت التي خاطبتها بصوت مدلّل قائلة: وونكي بو، أين كنت يا وونكي

طوال الصباح؟

وتذكّر لوك أنه سمع ذلك الاسم من قبل، ولكنْ أين؟ ثم قال: هذه هرّة فارسية جميلة! هل مرّ عليها وقت طويل عندك؟

فهزّت الآنسة وينفليت رأسها وقالت: لا، لقد كانت تملكها صديقة لي اسمها الآنسة بينكرتون. لقد صدمتها سيارة، ولم أكُن لأسمح لوونكي بو بالذهاب إلى أشخاص غرباء؛ فذلك لم يكُن يُرضي لافينيا لأنها كانت تحبها حباً جماً. أليست هرّة جميلة؟

فأظهر لوك إعجابه بالهرة، ثم قامت بريدجت وقالت: علينا أن نذهب.

وصافحت الآنسة وينفليت لوك قائلة: قد أراك في القريب.

فردّ عليها لوك قائلاً: أرجو ذلك، بل أنا متأكّد من ذلك.

ولاحظ لوك أن لحظة حيرة وعدم قبول مرّت بها فحوّلت بصرها إلى بريدجت بنظرة سريعة متسائلة، وخُيل إلى لوك أنه يوجد نوع من التفاهم بين الاثنتين فضايقه ذلك، وقرر أن يصل إلى حقيقة هذه المسألة عما قريب.

وخرجت الآنسة وينفليت معهما. وفي الخارج وعلى الدرجة العليا وقف لوك ونظر حوله بإعجاب ثم قال: هذا المكان جميل لأنه على حالته الطبيعية.

فأضاء وجه الآنسة وينفليت وقالت بحماسة: أجل، هو على حاله التي أذكره عليها عندما كنت طفلة، ففي ذلك الوقت كنا نقطن في الويشرهول، ولكن أخي لم يكُن يهتمّ بالسكن فيه، والحقيقة أنه لم يكُن في مقدوره أن يفعل ذلك فعرضه للبيع. وكان

يوجد مقاول عرض ثمناً طيباً له، وكان ينوي إنشاء وحدات سكنية فيه، ولحُسن الحظّ تدخّل اللورد هوايتفيلد فاشترى العقار وحوّل المنزل إلى مُتحف ومكتبة، ولم يمسّ المنزل، وأنا أعمل مرّتين في الأسبوع كأمينة للمكتبة ولا أتقاضى أجراً على ذلك بالطبع، ولا يمكنني أن أصف لك مقدار السرور الذي أشعر به وأنا في داخل ذلك المنزل القديم ولا سيما وأنني أعرف أنه لم يُمَسّ. لا بدّ أن تحضر يوماً لزيارة المتحف يا سيد فيتز ويليام.

- بالطبع، لا بدّ أن أفعل ذلك يا آنسة وينفليت.

- لقد كان اللورد هوايتفيلد رجلاً كريماً سخياً على ويتشوود، ويحزنني أن يوجد أناس لا يقدّرون الجميل.

ولم يعقّب لوك على ذلك، ثم ودّعها مرة أخرى. وعندما صار الاثنان خارج المنزل قالت بريدجت: أتريد إكمال تحرّياتك أم تفضّل العودة إلى المنزل عن طريق النهر؟

فردّ لوك بسرعة بأنه يفضّل العودة إلى المنزل لأنه لم يرَ فائدة من متابعة أبحاثه، ولم يقل لها إن ذلك لأنها كانت بالقرب منه تستمع إلى كل كلمة. وسار الاثنان في الشارع الرئيسي، وعلى أحد المنازل التي في نهاية الطريق شاهد لافتة كُتب عليها «عاديّات» بخط ذهبي قديم، فتوقّف لوك ونظر من زجاج إحدى النوافذ إلى الداخل ثم قال: أرى طبقاً جميلاً يصلح أن أهديه لعمّتي. تُرى كم يكون ثمنه؟

- هل ندخل لنرى؟

- ألا تعارضين؟ أنا أحب التنقيب في متاجر العاديّات لأن المرء يحظى بصفقات طيبة أحياناً.

فقالت بريدجت بجفاف: أنا أشكّ في ذلك هنا لأن ألزورثي يعرف جيداً القيمة الحقيقية لكل شيء عنده.

وكان الباب مفتوحاً فدخلا فوجدا غرفتين مليئتين بأشياء مختلفة، ثم توجه لوك إلى الغرفة اليسرى ورفع أحد الأطباق، وفي اللحظة نفسها جاء شخص من نهاية الغرفة وقال: آنسة كونواي، أنا مسرور لرؤيتك.

- طاب صباحك يا سيد ألزورثي.

كان السيد ألزورثي شاباً يرتدي سُترة زاهية اللون، وكان وجهه طويلاً شاحباً ذا فم كفم النساء وشعر طويل. وقامت بريدجت بتقديم لوك إليه، وفي الحال أظهر ألزورثي اهتمامه وقال: هذا طبق أثري إنكليزي أصيل، أليس جميلاً؟ أنا أحب كل الأشياء الموجودة هنا وأكره الافتراق عنها وبيعها. لقد كنت أحلم بالحياة في الريف وأن يكون لي محلّ صغير، وويتشوود مكان ذو جو جميل!

فتمتمت بريدجت قائلة: الذوق الفني.

فاستدار إليها ألزورثي بسرعة وهو يشيح بيده البيضاء: لا تذكري هذه الجملة التي أكرهها يا آنسة كونواي. لا، أرجوك لا تقولي بأنني فنان؛ فأنا لا أتحمّل ذلك العبء، أنا لست سوى تاجر، وهذا هو كل شيء. لست سوى تاجر.

فسأله لوك قائلاً: ولكن ألست فناناً حقاً؟ أعني ألست ترسم بالألوان المائية؟

فصرخ السيد ألزورثي وقد عصر كفّيه قائلاً: مَن الذي ذكر لك ذلك؟ هل تعلم أن هذا المكان الجميل لا يمكن للمرء أن

يحتفظ فيه بسرّ؟ هذا ما يعجبني هنا لأنه يختلف كل الاختلاف عن المدن التي لا يهتمّ فيها المرء إلا بنفسه فقط، أما هنا فتوجد الشائعات والفضائح، وكلها من الأشياء اللطيفة إذا نظر إليها المرء بروح ملائمة.

وأرضى لوك نفسه بإجابة الشطر الأول من كلام السيد ألزورثي، ولم يُعنَ بإجابة الشطر الثاني ثم قال: لقد أخبرتنا الآنسة وينفليت بأنك قمت بعمل عدّة رسوم لفتاة هي آمي جيبز.

- آمي؟ أنا؟ نعم، أظن أنني فعلت ذلك.

وظهر عليه الارتباك نوعاً ما، فقالت بريدجت: لقد كانت فتاة جميلة.

- هل تظنين ذلك؟ لقد كنت أظن أنها عادية.

ثم استدار إلى لوك وقال: هل يعجبك شيء هنا؟

فأراه لوك الطبق، فذكر ألزورثي له ثمناً فقال لوك: شكراً لك، أظن أنني لن أحرمك من هذا الطبق.

فقال ألزورثي: هل تعلم أنني أشعر بالراحة دائماً عندما لا أبيع؟ أليست هذه بلاهة منّي؟ ومع ذلك فأنا سأتنازل لك عنه بعد إنقاص جنيه من ثمنه لأنني أرى أنك مهتم به، وهذا ما يجعلني أغيّر رأيي ولا سيما أن هذا محلّ للبيع.

فقال لوك: لا، شكراً.

ثم رافقهما السيد ألزورثي إلى الباب وهو يحرّك يديه. وبعد أن خرجا وجّه لوك الحديث إلى بريدجت قائلا: يا له من شخص كريه!

فردّت عليه بريدجت قائلة: إنه ذو فكر كريه وعادات كريهة.

- تُرى ما الدافع الذي جاء به إلى هذا المكان؟

- ربما كان يمارس السحر، والسمعة التي يشتهر بها هذا المكان لها أثر في ذلك.

فقال لوك: عجباً! أظنه الشخص الذي أحتاج إليه حقاً، كان يجب عليّ أن أتحدّث معه في هذا الموضوع.

فقالت بريدجت: يبدو أنه يعرف الكثير عن ذلك.

فقال لوك باضطراب بعض الشيء: سأقابله مرة أخرى.

ولم تُجِب بريدجت على ذلك، وكانا قد أصبحا خارج البلدة فاستدارت لتسير ببطء. وسرعان ما أصبحا بالقرب من النهر، وهناك شاهدا رجلاً قصيراً ذا شارب كثيف ومعه ثلاثة كلاب من نوع البولدوغ وهو يصرخ فيها بصوت أجش قائلاً: نيرو، تعالَ هنا، نيللي اتركي ذلك، اتركيها. أوغستس، أوغستس...

ثم توقّف عن صراخه ورفع قبّعته محيياً بريدجت وحملق إلى لوك بفضول واضح، ثم سار في طريقه متابعاً صراخه، فسأل لوك قائلاً: أهذا هو الميجور هورثون وكلابه البولدوغ؟

- نعم.

- لقد رأينا كل من له أهمية في ويتشوود في هذا الصباح؟

- تقريباً.

- أشعر بأنني متطفّل هنا، وأظن أن الغريب في قرية إنكليزية

تُشَمّ رائحته على بُعد ميل.

فقال بريدجت: الميجور هورثون لا يعرف إخفاء فضوله جيداً، لذا حملق إليك.

فقال لوك بحنق: أراه من ذلك النوع الذي يسهل الحُكم عليه بأنه كان ضابطاً.

فقالت بريدجت فجأة: هل يمكننا أن نجلس على الشاطئ قليلاً؟ لدينا الكثير من الوقت.

وجلس الاثنان على جذع شجرة ملقى على الأرض، ثم قالت بريدجت: نعم، لقد كان الميجور هورثون رجلاً عسكرياً حقاً، ومن الصعب أن تصدّق أنه كانت تتحكم فيه امرأة منذ عام مضى.

- مَن؟ ذلك الرجل؟!

- نعم، لقد كانت له أسوأ زوجة ثرية عرفتها في حياتي، ولم تكُن تلك الحقيقة خافية عن الناس إطلاقاً.

- يا للمسكين!

- كان يعاملها برقّة دائماً؛ فهو مثال للإنسان المحترم، وأنا أعجب من أنه لم يقتلها!

- هل أفهم من ذلك أنها لم تكُن محبوبة.

- لقد كان الجميع يكرهها؛ فقد كانت تعامل جوردون بجفاء، وتعاملني وكأنها وصية عليّ، وبذلك أصبحت مكروهة في كل مكان تذهب إليه.

- ولكنني علمت أنها ماتت.

- أجل، منذ نحو عام أُصيبت بمرض مفاجئ، مما جعل زوجها والدكتور توماس وممرّضتين يعيشون في جحيم. ولكنها ماتت، وبعد موتها ظهر السرور على كلاب البولدوغ.

وأعقب ذلك صمت كانت بريدجت في أثنائه تجذب الحشائش من الأرض بكسل في حين كان لوك ينظر إلى الشاطئ المقابل وهو عابس. ومرّة أخرى شعر بثِقَل المهمة التي أخذ على عاتقه إنجازها، ثم تساءل ما مقدار الحقيقة وما مقدار الخيال فيما يظن؟ أليس أمراً سيئاً أن ينظر المرء بارتياب إلى كل فرد يقابله ثم يقوم بتحليله ودراسته لأنه قد يكون مجرماً؟ هذا أمر يحقّر من قيمة الفرد. ورأى لوك أن السبب في ذلك يرجع إلى أنه مكث مدّة طويلة يعمل شرطياً. ثم أفاق من تأمّلاته بصدمة مباغتة حين سمع صوت بريدجت تقول ببرودة ووضوح: سيد فيتز ويليام، ما سبب مجيئك إلى هنا بالضبط؟

* * *

الفصل السادس

في تلك اللحظة كان لوك يقرّب عود ثقاب مشتعل من لفافة تبغ، وشلّ سؤالها المباغت حركتَه فبقي دون حراك حتى احترق عود الثقاب وأصاب إصبعه، ثم قال وهو يلقي بالعود أرضاً ويهزّ يده بعنف: تباً! أرجو المعذرة، لقد فاجأتِني مفاجأة غير سارة.

فابتسمت بريدجت وقالت: هل فعلت ذلك؟

فتنهد لوك ثم قال: نعم. حسناً، أعتقد أن أي شخص ذكي كان يمكنه معرفة أمري. إن قصّة تأليف كتاب عن المعتقدات لم تخدعك للحظة، أليس كذلك؟

- بعد أن رأيتك؟ بلى، لم تخدعني.

- هل كنت تصدقينها قبل ذلك؟

- نعم.

- على أية حال هي لم تكُن كذبة متقَنة، أعني أن أي شخص قد يزعم أنه يؤلّف كتاباً، ولكن ذلك الجزء الخاص بحضوري هنا وانتحال صفة أحد أبناء عمومتك هو الذي جعلك تظنين أن في الأمر شيئاً.

فهزت بريدجت رأسها وقالت: لقد كان لدي تفسير ذلك حيث ظننك تعاني أزمة مالية، فالكثير من أصدقاء جيمي كذلك، وظننت أنه اخترع ذلك حتى يحفظ عليك كبرياءك.

فقال لوك: هل تعنين أن مظهري جعلك ترين أن ظنك قد خاب؟

فظهرت ابتسامة خفيفة على شفتيها ثم قالت: لا، لم يكُن الأمر كذلك. الموضوع ببساطة هو أنك لم تكُن الشخص المناسب لِما تدّعيه.

- أتعنين أنه ليس عندي من الذكاء ما يجعلني أؤلّف كتاباً؟ أرجو أن لا تراعي مشاعري؛ فأنا أودّ أن أعرف الحقيقة.

- قد تكتب كتاباً، ولكن ليس ذلك النوع من الكتب عن المعتقدات القديمة والتنقيب عن الماضي. لا، ليس مثل ذلك النوع من الكتب لأنك من الطراز الذي لا يعنيه الماضي كثيراً، وربما لا يعنيه المستقبل أيضاً لأنك تُعنى بالحاضر فقط.

- أعرف الآن ما تعنينه. تباً لكل شيء! لقد جعلتِني في حالة عصبية منذ جئت إلى هنا، فمظهرك يدلّ على الذكاء الخارق.

فقالت بريدجت بجفاء: أنا آسفة. ماذا كنت تتوقع إذن؟

- حسناً، في الحقيقة لم أفكّر في ذلك.

ولكنها استمرّت في حديثها بصوت هادئ قائلة: هل كنت تظنني فتاة صغيرة مدلّلة عندها من العقل ما يكفي أن تدرك الفرصة التي سنحت أمامها لتتزوج بمخدومها فحسب؟

فخرج من فم لوك صوت يدلّ على الاضطراب، فأدارت بصرها نحوه وهي لا تخفي سرورها ثم قالت: أنا أعرف ذلك تماماً، ولا حرج عليك فأنا لست متضرّرة.

فقال لوك: حسناً، ربما كان الأمر قريباً ممّا تصفين، ولكنني لم أفكّر كثيراً في ذلك.

فقالت ببطء: لا أظنك أنك فعلت.

- ليس لدي شكّ في أنني أسأت كثيراً في تمثيل دوري، ولكن هل أدرك اللورد هوايتفيلد أمري هو الآخَر؟

- لا، فحتى لو كنت قد ادعيت أنك حضرت إلى هنا لتكتب كتاباً عن شيء غير معقول لصدّقك جوردون لأنه يصدّق أي شيء.

- على أية حال أنا لم أكُن ناجحاً في تمثيل دوري على الإطلاق.

فقالت بريدجت: لقد قلبت لك خُططك، وقد لاحظت ذلك وشعرت بالسرور وأنا أفعله.

- طبعاً، فالنساء ذوات العقول يكُنّ قاسيات القلوب عادة.

فتمتمت بريدجت قائلة: على المرء أن ينتهز كل فرصة تُتيح له السرور.

ثم أضافت قائلة: لماذا أنت هنا يا سيد فيتز ويليام؟

وبذلك عادا مرّة أخرى إلى ذلك السؤال، وكان لوك يعلم أنه سيُواجَه بالسؤال نفسه عاجلاً أو آجلاً، وفي اللحظات القليلة

الأخيرة كان يحاول أن يصل إلى قرار، ثم نظر إليها فالتقت العينان فقال وهو يفكر: أظن أنه من الأفضل أن لا أذكر لك أكاذيب أخرى.

- ذلك أفضل كثيراً.

- ولكن الحقيقة غير معقولة. أخبريني، هل كوّنت لك رأياً؟ أعني هل خطر ببالك أي شيء عن سبب مجيئي إلى هنا؟

فأومأت برأسها ببطء، فقال: ماذا ظننت؟ هلاّ قلت لي، أظن أن ذلك قد يساعدني بعض الشيء.

فقالت بريدجت بهدوء: لقد دار بخلدي أنك حضرت إلى هنا من أجل شيء يتعلّق بموت تلك الفتاة آمي جيبز، هذا ما ظننت وما شعرت به كلما ورد ذكر اسمها.

- إذن أنت ظننت أنني جئت لهذا السبب، أليس كذلك؟

- بلى.

ثم صمت وقطب حاجبيه في حين جلست الفتاة بالقرب منه وهي صامتة أيضاً، ولم تقُل شيئاً خوفاً من أن تقطع عليه تفكيره، ثم استقرّ رأيه على قرار فقال: لقد جئت إلى هنا وراء شيء خيالي، ومن المحتمل أن يكون افتراضاً غير معقول، وآمي جيبز ليست إلا جزءاً من الكل، ويهمّني أن أعرف بالضبط كيف ماتت.

- نعم، لقد ظننت ذلك.

- ولكن ما الذي جعلك تظنين ذلك؟ ما الذي كان وراء موتها حتى جعلك تهتمّين بها؟

فقالت بريدجت: لقد ظننت أنه يوجد شيء غير طبيعي بالنسبة إلى موتها، ولذلك أخذتك لترى الآنسة وينفليت.

- لماذا؟

- لأنها تظن ذلك أيضاً.

وهنا عاد لوك بذاكرته سريعاً إلى الوراء فأدرك التلميحات التي دلّ عليها سلوك تلك العانس ثم قال: هل هي تظن مثلك أنه يوجد شيء غير عادي بالنسبة إلى موت آمي؟

فأومأت بريدجت برأسها، فقال: ماذا بالضبط؟

- أولاً، طلاء القبعات.

- ماذا تعنين بطلاء القبعات؟

- حسناً، منذ نحو عشرين عاماً كان الناس يطلون القبعات، ففي موسم تكون القبعات من القش وقرمزية اللون، وفي الموسم التالي يشتري المرء زجاجة من طلاء القبعات ويدهنها فتصبح القبعة زرقاء داكنة وهكذا، أما الآن فالقبعات رخيصة ترميها النساء بانتهاء الموسم.

- حتى لو كانت الفتاة من طبقة آمي جيبز؟

- قد يكون معقولاً أن أقوم أنا بطلاء قبعة، ولكن من غير المعقول أن تقوم آمي جيبز بذلك، ثم إنه يوجد شيء آخَر، وهو أن الطلاء كان لونه أحمر.

- وماذا في ذلك؟

- لقد كان لون شعر آمي جيبز أحمر.

- هل تعنين بذلك أنه لا يوجد توافق بين الاثنين؟

فأومأت بريدجت برأسها وقالت: لا يمكن للفتاة أن ترتدي قبعة حمراء فوق شعر أحمر، الرجل لا يعرف ذلك ولكن...

فقاطعها لوك قائلاً: أجل، الرجل لا يعرف ذلك.

فقالت بريدجت: إن لجيمي أصدقاء يعملون في اسكتلنديارد، فهل أنت...

فقاطعها لوك بسرعة قائلاً: لا، لست مخبراً رسمياً، وإنما أنا كما قال لك جيمي بالضبط رجل شرطة متقاعد بعد أن خدمت في الشرق، واهتمامي بهذا الموضوع سببه حادث عجيب وقع لي في القطار الذاهب إلى لندن.

وقصّ عليها سلسلة الأحداث بالترتيب ثم ختمها قائلاً: وهكذا ترين أن الموضوع خيالي. أنا أبحث عن رجل معيّن، قاتل خفي... هنا في ويتشوود، ومن المحتمل أن يكون رجلاً محترماً ومعروفاً. وإذا كانت الآنسة بينكرتون على صواب فذلك يعني أن الرجل قتل آمي جيبز، وأظن أنه كان من الممكن أن يتسلل القاتل من خارج المنزل، أليس كذلك؟

فقالت بريدجت ببطء: بلى، فالشرطي ريد تسلّق المنزل من الخارج حتى وصل إلى نافذتها التي كانت مفتوحة، وليس الأمر صعباً حقاً.

- لنفرض أنه فعل ذلك، فماذا بعدُ؟

- استبدل القاتل زجاجة طلاء القبعات بزجاجة شراب السعال.

- على أمل في أن تفعل ما فعلت بالضبط، أن تستيقظ فتشرب منها، ليقول أي فرد بأنها ارتكبت خطأ أو انتحرت.

- أجل.

- ألم يُشِر التحقيق إلى الشكّ في أن الحادث قد يكون مدبَّراً؟

- نعم، لم يُشِر.

- ولكنه خطر ببالك.

- أجل.

- وكذلك الحال بالنسبة إلى الآنسة وينفليت. هل تناقشتما في تلك النقطة؟

فابتسمت بريدجت قليلاً ثم قالت: لا، ليس كما تتصوّر، أعني أننا لم نقُل شيئاً. وفي الحقيقة أنا لا أعرف مدى ما وصل إليه عقل تلك المرأة، ويمكنني أن أقول إن ذلك الموضوع قد سبّب لها قلقاً في البداية ثم تزايد الأمر تدريجياً، وأنت تعلم أنها ذكية. بالمناسبة هل ذكرت الآنسة بينكرتون لك أسماء أخرى؟

فأومأ لوك برأسه قائلاً: نعم، صبي صغير وهو تومي بيرز، وقد تذكّرت الاسم حينما سمعته، وأنا واثق جداً من أنها ذكرت اسم كارتر أيضاً.

فقالت بريدجت وهي تفكر: كارتر، تومي بيرز، آمي جيبز، الدكتور همبلبي. الأمر خيالي جداً كما ذكرت، حتى أنه يصعب تصديقه! مَن الذي يرغب في قتل كل هؤلاء الناس؟

فسألها لوك: ألديك أية فكرة عن السبب الذي قد يدعو أي فرد إلى التخلّص من آمي جيبز؟

فهزّت بريدجت رأسها وقالت: أنا لا أتصوّر أحداً.

- وماذا عن ذلك الرجل كارتر؟ كيف مات؟

- سقط في النهر فغرق. لقد كان في طريقه إلى منزله وهو ثمل إلى درجة كبيرة، وكانت الليلة يغشاها الضباب، وتوجد على النهر قنطرة ضيّقة للمشاة لها سور أو حاجز من ناحية واحدة فقط، والرأي العام يقول بأنه قد زلّت قدمه فسقط في النهر.

- ولكن كان يمكن لأي فرد أن يدفعه بسهولة، أليس كذلك؟

- بلى.

- وكان بإمكان أي فرد آخَر أن يدفع تومي الصغير بسهولة عندما كان ينظف النافذة، أليس كذلك؟

- بلى.

- وهكذا نصل إلى الواقع، وهو أنه من السهل حقاً التخلّص من ثلاثة أفراد دون أن يثير ذلك أي اشتباه.

فأوضحت بريدجت قائلة: ولكن الآنسة بينكرتون اشتبهت.

- نعم اشتبهت. يا للمسكينة!

- كثيراً ما ذكرت لي أن العالَم قد امتلأ شراً.

- وأظنك قد ابتسمت لها برثاء.

- بل بتعالٍ.

فقال لوك: أظن أنه من العبث أن أسألك عمّا إذا كان لديك أي شعور إيحائي بهذا الصدد. هل يوجد أي فرد معيّن في ويتشوود يجعلك تشعرين بقشعريرة عند رؤيته، أو صاحب أعين غريبة شاحبة اللون أو مَن يضحك ضحكة هستيرية تدلّ على الجنون؟

- كل شخص قابلته في ويتشوود يُظهر لي أنه عاقل ومحترم وعادي جداً.

فقال لوك: كنت أخشى أن تقولي هذا الذي ذكرتِه الآن.

فقال بريدجت: هل تظن أن ذلك الرجل مجنون؟

- نعم، مجنون حقاً، ولكنه مجنون ماكر. وهو آخِر شخص يمرّ بخاطرك، ومن المحتمل أن يكون واحداً من كُبراء المجتمع مثل مدير المصرِف مثلاً.

- تعني السيد جونس؟ لا يمكنني أن أتصوّره يرتكب جرائم بالجملة.

- إذن من المحتمل أن يكون هو الرجل الذي ننشده.

فقالت بريدجت: يمكن أن يكون أي شخص كالقصّاب أو الخبّاز أو البقّال أو عامل في الحقل أو عامل من عمّال الطرُق أو موزّع الحليب.

- أجل، يمكن أن يكون كذلك، ولكنني أظن مجال بحثنا أضيق من ذلك.

- لماذا؟

– لقد ذكرت لي الآنسة بينكرتون النظرة التي شهدتها في عيني الشخص وهو ينظر إلى ضحيّته التالية، ومن طريقة حديثها شعرت بأن الشخص الذي كانت تتحدّث عنه يساويها في الحالة الاجتماعية على الأقل، وطبعاً قد أكون مخطئاً فيما شعرت به.

– من المحتمل أن تكون مصيباً، فما يحمله الحديث لا يمكن وصفه بكلمات، ولكنها أشياء لا يخطئ المرء فيها حقاً.

– هل تعرفين أنني أشعر بالراحة الآن بعد أن عرفتِ أنت كل شيء؟

– أنا أوافقك على أن ذلك سيجعلك أكثر اطمئناناً في اتخاذ ما تراه من خطوات دون محاولة تغطية مركزك أمامي، وقد أُساعدك أيضاً.

– مساعدتك ستكون ذات قيمة لا تُقدَّر. هل تعنين أنه يهمّك كشف ذلك الأمر؟

– طبعاً.

ثم سألها لوك بارتباك مفاجئ قائلاً: وماذا عن اللورد هوايتفيلد؟ هل تظنين...؟

– طبعاً لن نذكر شيئاً من ذلك لجوردون.

– هل تعنين أنه سيصدّق ذلك؟

– نعم، سيصدق لأنه يمكنه تصديق أي شيء، ومن المحتمل أنه سيشعر بالنشوة ويصرّ على أن يضع مجموعة من رجاله الأذكياء تحت إمرتك لينبشوا في هذه الأنحاء.

فوافق لوك قائلا: ذلك يجعلنا نستبعده من تفكيرنا تماماً.

- نعم؛ فلا يمكننا أن نسمح له بمزاولة ما يسُرّه على حسابنا.

ونظر لوك إليها كأنه كان سيذكر لها شيئاً، ثم عدل عن تفكيره. وبعد ذلك نظر إلى ساعته فقالت بريدجت: نعم، يجدر بنا أن نعود إلى المنزل.

ثم سارا نحو المنزل بصمت.

* * *

الفصل السابع

جلس لوك في غرفة نومه وحيداً، ثم أخذ ورقة وكتب فيها الأسماء الآتية: الدكتور توماس، السيد آبوت، الميجور هورثون، السيد ألزورثي، السيد ويك، السيد جونز، خطيب آمي، القصّاب، الخبّاز، صانع الشموع...

ثم أخذ ورقة أخرى وكتب في أعلاها «الضحايا»، ثم كتب تحتها: آمي جيبز: مسمومة، تومي بيرز: دُفع من النافذة، هاري كارتر: دُفع من الجسر ثملاً أو مخدّراً، الدكتور همبلبي: تسمّم دموي، الآنسة بينكرتون: صدمتها سيارة.

ثم كتب: السيدة روز، العجوز بن، السيدة هورثون.

ومرت مدّة وهو يتأمّل القائمتين، ثم تناول قلمه مرة أخرى وعاد يكتب: الدكتور توماس: ما يُحتمَل أن يكون ضده: دافع مؤكّد في حال الدكتور همبلبي وطريقة موت الأخير ملائمة، وأعني بذلك السمّ العلمي عن طريق الجراثيم، وآمي جيبز قد زارته في عصر اليوم الذي ماتت فيه. هل هناك علاقة بينهما؟ هل هو ابتزاز أموال عن طريق التهديد مثلاً؟ تومي بيرز؟ لا توجد علاقة معروفة. هل كان تومي يعرف بوجود علاقة بينه وبين آمي جيبز مثلاً؟ ماذا عن هاري كارتر؟ لا توجد علاقة معروفة. هل كان

الدكتور توماس غائباً عن ويتشوود في اليوم الذي ذهبت فيه الآنسة بينكرتون إلى لندن؟

ثم تنهد لوك وبدأ في عنوان جديد ثم كتب: السيد آبوت: ما يحتمل أن يكون ضده: أشعر بأن المحامي قد يكون شخصاً يدعو إلى الاشتباه به، ومن المحتمَل أن يكون شعوري هذا مبنياً على الهوى ولكنه شخصيّة متلوّنة وطبيعية. يصلح أن يكون مشتبَهاً به إذا ذُكر في قصّة مكتوبة؛ فالعادة هي الاشتباه في الأشخاص الطبيعيين ذوي الغرور، ولكن وجه الاعتراض هو أنني لا أؤلّف كتاباً وإنما أنقُل عن الحياة الواقعية. الدافع إلى قتل الدكتور همبلبي: عداء قاطع كان موجوداً بين الرجلَين، فقد تحدّى همبلبي آبوت، وهو دافع كافٍ لعقل مختلّ، وهذا العداء كان من الممكن للآنسة بينكرتون ملاحظته. تومي بيرز: لقد اطّلع الأخير خِلسة على أوراق تخصّ آبوت، فهل عرف منها أشياء لم يكُن له أن يعرفها؟ أما هاري كارتر فلا توجد علاقة معروفة. آمي جيبز: لا توجد علاقة معروفة، ولكن طلاء القبعات يتّفق مع عقلية آبوت وهي عقلية رجعية. هل كان آبوت غائباً عن القرية في اليوم الذي قُتلت فيه الآنسة بينكرتون؟

الميجور هورثون: ما يحتمل أن يكون ضده: لا توجد علاقة معروفة بينه وبين كل من آمي جيبز أو تومي بيرز أو كارتر، ولكن ماذا عن السيدة هورثون؟ يبدو أن موتها كان سببه السمّ بالزرنيخ، فإذا كان الأمر كذلك فقد يكون ترتب على ذلك ابتزاز المال عن طريق التهديد؟ ملحوظة: كان الدكتور توماس هو الطبيب المعالج، وهذا ما يدعو إلى الاشتباه في توماس أيضاً.

السيد ألزورثي: ما يحتمل أن يكون ضده: شخصية مكروهة،

يمارس السحر ويمكن أن يكون ذا طباع تشبه طباع قاتل متعطّش للدماء، له علاقة بجيبز، فهل كانت له علاقة بتومي بيرز وكارتر؟ لا يوجد شيء معروف حتى الآن. ماذا عن همبلبي؟ قد يكون عرف بأمر الحال العقلية لألزورثي. ماذا عن الآنسة بينكرتون؟ هل كان ألزورثي غائباً عن ويتشوود عندما قُتلت الآنسة بينكرتون؟

السيد ويك: ما يحتمل أن يكون ضده: أمر بعيد الاحتمال. هل يوجد احتمال في وجود هوَس ديني؟ هل رسالته هي أن يقتل؟ في القصص يُحتمَل أن يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى رجال الدين المسنين، ولكن هذه ليست قصّة بل واقع الحياة كما ذكرت من قبل.

ملحوظة: كل من كارتر وتومي وآمي شخصيات غير محبوبة قطعاً، فهل من الأفضل أن تُزال من الوجود بقرار مقدّس؟

السيد جونز: المعلومات عنه: لا شيء. خطيب آمي، قد يكون لديه كل ما يدعوه إلى قتل آمي، ولكن يبدو أنه من غير معقول أن يكون هو ذلك القاتل الجماعي لتعدّد القتلى.

وقرأ لوك ما كتبه ثم هزّ رأسه وقال بصوت خفيض: كل ذلك أمر غير معقول.

ثم مزّق القوائم التي كتبها وأحرقها وهو يقول في نفسه: لن يكون الأمر سهلاً حقاً.

* * *

الفصل الثامن

كان الدكتور توماس شاباً لا يدلّ منظره على حقيقة سنه لأنه كان في الثلاثين من عمره، ولكن منظره يدلّ على أنه في بداية العقد الثالث أو نهاية العقد الثاني. ومع أن منظره كان يوحي بعدم النضج إلا أن تحليله للآلام الروماتزمية التي يشعر بها لوك في ركبته كادت تتّفق كل الاتفاق مع التشخيص الذي قام به أحد مشاهير الأطباء في شارع هارلي منذ نحو أسبوع، فقال لوك: شكراً، أشعر بارتياح لأنك تظن أن العلاج بالكهرباء سيشفي ركبتي، فأنا لا أرغب في أن أصير مقعداً وأنا في هذه السن.

فابتسم الدكتور توماس ابتسامة بريئة ثم قال: لا أظن أنه يوجد أي خطر يا سيد فيتز ويليام.

- لقد أرحت ضميري، وكنت أفكر في الذهاب إلى أخصائي ولكنني تأكّدت الآن من أنه لا ضرورة إلى ذلك.

فابتسم الدكتور توماس مرّة أخرى ثم قال: اذهب إذا كان في ذلك اطمئنان لنفسك، وعلى أية حال من الأفضل استشارة أخصائي.

- لا، لا، فأنا عندي ثقة كاملة بك.

- بصراحة حالتك لا توجد فيها أية مضاعفات، وإذا عملت بنصيحتي فأنا متأكّد من أنك ستتخلّص من الآلام.

ثم قال: أنت تؤلف كتاباً عن السحر يا سيد فيتز ويليام، أليس كذلك؟

فقال لوك بدهشة: وكيف عرفت ذلك؟

فظهر السرور على وجه الدكتور توماس ثم قال: الأنباء تنتقل بسرعة جداً في مثل هذا المكان يا سيدي العزيز؛ فليس لدينا إلا القليل الذي نتحدث فيه.

- ومن المحتمل أن تحدث مبالغات أيضاً، وربما تسمع أنني أستحضر الأرواح وأستجلب السحرة.

- من العجيب أن تذكر ذلك! إن الإشاعات ذكرت أنك استحضرت روح تومي بيرز.

- بيرز؟ أليس هو ذلك الصبي الذي سقط من النافذة؟

- بلى.

- عجباً كيف...؟ آه! بالطبع، لقد ذكرت ملاحظة في ذلك للمحامي آبوت.

- هذا صحيح، لقد بدأت الإشاعة من آبوت.

- لا تقُل إنني قد جعلت محامياً عركته الحياة يعتقد بوجود الأشباح.

- إذن هل تعتقد أنت بوجود الأشباح؟

- لهجتك توحي بأنك لا تعتقد بوجودها يا دكتور. لا، لا

يمكنني القول بأنني أعتقد ذلك، وإن كنت شهدت ظواهر غريبة في حالات موت الفجاءة إثر حادث. ولكنني أكثر اهتماماً بالمعتقدات التي تصاحب مثل تلك الحالات، فالشخص المقتول لا يستكين في قبره ودماء المقتول تعود لتسيل إذا لمس القاتل جسده.

- ما تقوله غريب جداً، ولكنني لا أظن أن الكثير من الناس يتذكّر مثل هذه الأشياء الآن.

- بل أكثر مما تظن. وبالطبع لا أظن أن أي جريمة قتل ارتُكبت هنا، ولذلك فمن الصعب أن نحكم برأي قاطع.

- نعم، لا أظن أنه قد وقعت هنا جريمة قتل منذ عدّة سنوات، وبالتأكيد لم تحدث أية جريمة منذ حضرت إلى هنا، فهذه البقعة هادئة لا توحي بالأعمال الإجرامية إلا إذا كان أحدهم قد دفع تومي من النافذة. صحيح أن الكثير من الناس كان يرغب في دقّ عنق ذلك الصبي ولكنني لا أظن أن أحدهم وصل به تفكيره إلى حد دفعه من النافذة.

فضحك لوك، ومرة أخرى عادت الابتسامة الصبيانية إلى وجه الدكتور توماس، ثم قال لوك: يبدو أنه كان ولداً ممقوتاً، وربما كان التخلّص منه قد عُدّ واجباً للمجتمع. لا زلت أرى أن بعض الجرائم قد تفيد المجتمع، فمثلاً الثقيل الذي يفرض نفسه على غيره يجب التخلّص منه بدسّ السمّ له في كأس من الشراب، والنساء اللاتي يضحكن في وجه غيرهن ثم ينهشن مَن كُنّ يضحكن في وجوههم حينما يلتفتون، وكذلك الرجعيون الذين يعوقون التقدّم... إذا أمكن التخلّص من أمثال هؤلاء بهدوء فذلك يُعَدّ كسباً للمجتمع.

فزادت ابتسامة الدكتور توماس اتساعاً ثم قال: في الواقع أنت تحبذ الجرائم على نطاق واسع!

- هل توافقني على أن ذلك فيه فائدة للمجتمع؟

- بغير شكّ.

فقال لوك: ولكنك غير جاد في حين أنني جاد فيما أقول، فأنا لا أُكنّ للحياة البشرية من الاحترام مثل ما يكنّه الرجل الإنكليزي العادي، فأي رجل يُعَدّ عائقاً في سبيل التقدّم تجب إزالته، هذا ما أراه.

فقال الدكتور توماس وهو يحرّك شعره الأشقر بيده: أجل، ولكن مَن الذي يحكم بصلاحية فرد ما أو عدم صلاحية؟

فقال لوك: أعترف بأن وجه الصعوبة يكمن هنا.

- إذا أخذنا برأيك، فإن الطبيب سيتخلص من الشخص العليل، والمحب للسلام سيدعو بالفناء على الجندي، وهكذا.

فقال لوك: يجب أن يكون الحُكم في ذلك لرجل يتمتّع بعقل علمي لا يميل مع الهوى مثل الطبيب، وبهذه المناسبة أظنك تصلح لذلك يا دكتور.

- هل تعني أنني أصلح للحُكم على الصلاحية للحياة؟

- نعم.

فهزّ الدكتور توماس رأسه وقال: مهمّتي هي أن أجعل من لا يصلح صالحاً، وأعترف بأن هذه مهمّة شاقة.

فقال لوك: دعنا نأخذ مثالاً على سبيل الجدل، فذلك الرجل

المدعو ماري كارتر...

فقال الدكتور توماس بحدّة: كارتر؟ أتعني صاحب مطعم النجوم السبعة؟

- نعم. أنا لم أعرفه، ولكن ابنة عمي الآنسة كونواي كانت تتحدّث عنه، ويبدو أنه كان أفّاقاً.

- لقد كان من العابثين، ولم يكُن يحسن معاملة زوجته ويتحكّم في ابنته، وكان دائم الشجار بذيئاً، وقد تشاحن مع معظم الناس.

- إذن الواقع أقرّ بأن المكان قد صار أفضل دونه.

- أوافقك على أن هذا هو الواقع.

- إذن لنفرض أن أحدهم دفعه بيده من فوق الجسر فسقط في النهر، ألا يكون الشخص الذي دفعه قد أدّى خدمة اجتماعية بذلك؟

فقال الدكتور توماس بجفاء: هل كنت تعمل بهذه الأساليب التي تدعو إليها في مضيق مايانغ حيث كنت تعمل؟

فضحك لوك وقال: لا، الأمر بالنسبة إليّ لا يعدو كونه نظرياً لا عملياً.

- نعم، لا أظن أنك من المعدن الذي يتّصف به القَتَلة.

- ولِمَ لا؟ لقد كنت صريحاً بما فيه الكفاية في إبداء وجهة نظري.

- تماماً، صريحاً أكثر من اللازم.

– هل تعني أنني لو كنت الرجل الذي يعدّ نفسه قاضياً وحَكماً لم يكُن لي حق الإفصاح عن وجهة نظري؟

– هذا ما عنيته.

– ولكنني قد أكون في حالة إيمان بما أشعر به تصل إلى حدّ الهوس.

– حتى إذا كان الأمر كذلك فإحساسك بحماية نفسك سيكون عاملاً فعّالاً. والواقع أنك إذا أردت البحث عن قاتل فابحث عن شخص يدلّ مظهره على الطيبة والرقّة وعلى أنه لا يمكنه إيذاء فراشة.

فقال لوك: قل لي، هل صادفت رجلاً ظننت أنه قد يكون قاتلاً من قبل؟

فردّ توماس بحدّة قائلاً: يا له من سؤال غريب!

– وما وجه الغرابة فيه؟ الطبيب لا بدّ من أن يقابل شخصيات عديدة وغريبة، فمثلاً في استطاعته أن يلاحظ علامات جنون القتل قبل أن يلحظها غيره.

فقال توماس بتبرّم: معلوماتك عن جنون القتل لا تتعدّى معلومات الرجل العادي؛ فأنت تتصوره رجلاً يهيم على وجهه وقد ملأ الزبَد فمَه وفي يده سكين. دعني أُقل لك إن من أصعب الأشياء معرفة مَن عنده نزعة القتل الجنونية لأنه قد يكون مثل غيره من الناس، وربما كانت إخافته من أسهل الأمور، وقد يذكر لك أن له أعداء ولا شيء غير ذلك، أي أنه يكون رجلاً وديعاً لا يميل إلى الشغب.

- حقاً؟

- طبعاً، فعادة يرتكب المصاب بجنون القتل جرائمه وهو يعتقد أنه يدافع عن نفسه، ولكن معظم القتلة أناس عقلاء مثلك ومثلي.

- أنت تخيفني بقولك هذا يا دكتور. قد تسمع بأنني ارتكبت خمس جرائم قتل أو ستاً بعد ذلك مثلاً.

فابتسم الدكتور توماس وقال: لا أظن ذلك معقولاً يا سيد فيتز ويليام.

- أشكرك على هذا الإطراء، وأبادلك إياه قائلاً بأنني لا أظن أنك قد ترتكب خمس جرائم قتل أو ستاً.

فقال الدكتور توماس ببساطة: أنت لم تُحصِ فشلي في الحالات التي عالجتها.

وضحك الرجلان، ثم قام لوك لينصرف، وقال معتذراً: أظن أنني قد ضيّعت عليك الكثير من وقتك.

- لا، لست مشغولاً؛ فويتشوود مكان صحي، ومما يبعث السرور أن يتحدّث المرء مع شخص شهد العالَم الخارجي.

فقال لوك: أنا أعجب من...

ثم صمت، فقال الآخَر: ماذا؟

- قالت لي الآنسة كونواي عندما أوصتني بالحضور إليك أنك طبيب من الدرجة الأولى، فعجبت وسألت نفسي: ألا تشعر بأنك شبه مقبور هنا لأنه لا تسنح لك أية فرصة كي تُظهر نبوغك؟

- بالعكس، أنا أعتقد أن عدم التخصّص للطبيب يُعَدّ بداية طيّبة له لأنه يكتسب منه خبرة قيّمة.

- ولكنك لن تكون سعيداً إذا قضيت حياتك كلها في هذا المكان، فشريكك الراحل الدكتور همبلبي لم يكُن رجلاً طموحاً، هذا ما سمعته، وكان سعيداً بعمله، ولا بدّ أنه كان سيبقى هنا لعدّة سنوات لو امتدّ به الأجل.

- بل كان سيقضي حياته كلها هنا.

- لقد سمعت أنه كان رجعياً في أساليب علاجه.

- كان عنيداً في بعض الأحيان وينظر إلى الأساليب الحديثة بكثير من الشكّ، ولكنه كان مثالاً طيباً للمدرسة القديمة من الأطباء.

- لقد سمعت أنه ترك بعده ابنة جميلة جداً.

وسرّ لوك أن يرى وجه الدكتور توماس الشاحب قد تحوّل إلى لون قرمزي، ثم قال: آه، أجل.

فنظر إليه لوك بعطف وشعر بالسرور حقاً لأنه تأكّد من أن توماس لا مكان له في قائمة الأشخاص المشتبَه فيهم.

وفجأة قال توماس: بمناسبة حديثنا عن الجرائم يمكنني أن أُعيرك كتاباً في هذا الموضوع ما دام ذلك يهمّك، وهو كتاب مترجَم عن الألمانية.

ثم أحضر له الدكتور توماس الكتاب، وكان أحد فصوله يدور عن مربية قتلت عدّة أطفال قبل أن يتطرّق الشكّ إليها، فقال لوك

معقّباً: ممّا يثير الدهشة أن يرتكب مثل هؤلاء الناس عدّة جرائم دون أن يحوم الشكّ حولهم!

فقال الدكتور توماس: هذا ليس غريباً حقاً، وأنت تعرف أنه أمر سهل جداً.

- ماذا؟

فعادت الابتسامة إلى شفتَي الدكتور توماس وهو يقول: على المرء أن يكون حذراً كي لا يشكّ أحد فيه، هذا هو كل شيء، والرجل الذكي يكون على حذر شديد كي لا يرتكب أية هفوة.

ثم ابتسم توماس مرة أخرى ودار على عقبيه ودخل إلى المنزل في حين وقف لوك على الدرَج حيث دخل الدكتور. لقد شعر بأن ابتسامة الطبيب تحمل نوعاً من التعالي؛ فقد شعر طوال الحديث بأنه رجل ناضج وأن الدكتور توماس رجل شاب لم تعركه الحياة بعد، وفجأة وفي بُرهة قصيرة شعر بأن الأوضاع اختلفت كل الاختلاف؛ إذ كانت ابتسامة الطبيب توحي بأنها ابتسامة رجل كامل النمو يشعر بالسرور لفطنة صبي صغير.

* * *

الفصل التاسع

كان لوك قد اشترى علبة لفائف تبغ ونُسخة من المجلة الأسبوعية التي يصدرها اللورد هوايتفيلد من المحلّ الصغير الكائن في هاي ستريت. وفتح الصحيفة على الصفحة المخصّصة لكرة القدم فوجد أنه قد فشل في الفوز بمئة وعشرين جنيهاً فتمتم ساخطاً، ممّا حدا بالسيدة بيرز أن تُظهر أسفها وتذكر له مناسبات مماثلة خسرت فيها مبالغ كبيرة فقالت: زوجي السيد بيرز يهتمّ كثيراً بمباريات كرة القدم وهي أول شيء يبحث عنه في الصحف، وكثيراً ما أصابته الخيبة، ولكنني أعود فأقول لا يمكن لكل فرد أن يفوز ولا يمكن معاندة الحظ.

فوافقها لوك بحرارة على ذلك ثم أضاف قائلاً: ذلك يجعله يتذكّر أن المصائب لا تأتي فُرادى.

فتنهدت السيدة بيرز وقالت: هذا صحيح يا سيدي، أنا أعرف ذلك من خبرة شخصية، فإذا كان لامرأة زوج وثمانية من الأولاد ستة منهم أحياء واثنان قد ماتا فإنها تعرف ما المصيبة حقاً.

- أتقولين إن اثنين من بنيك قد ماتا؟

فقالت السيدة بيرز: أحدهما لم يمرّ على موته سوى شهر واحد.

- هذا أمر محزن حقاً.

- لم يكُن الأمر محزناً فقط، بل كان صدمة لي، وقد أُصبت بحالة غريبة عندما أخبروني بما حدث. لم أكُن أتوقّع أن يحدث شيء مثل ذلك لتومي، فالطفل إذا كان مصدر متاعب لأهله فإنهم لا يتمنّون له الموت عادة! كما كانت لي ابنة هادئة جداً وظريفة جداً، فكان الناس يقولون لي إنها لا يمكن أن تعيش طويلاً وإنها لم تُخلق لمثل هذه الحياة، وكان ذلك حقاً يا سيدي؛ فقد توفيت.

وشاركها لوك عواطفها، وشعر بحاجة ملحّة إلى إدارة دفّة الحديث إلى تومي فقال: تقولين إن ابنك مات حديثاً، فهل كان ذلك في حادثة ما؟

- نعم، مات في حادثة حينما كان ينظّف نافذة في المبنى القديم الذي أصبح الآن مقراً للمكتبة يا سيدي، ولا بدّ من أنه فقد توازنه وسقط من أعلى النافذة.

فقال لوك بعدم اهتمام: ألم تسمعي ما قيل من أنه قد رُئي وهو يرقص على حافة النافذة؟

فقالت السيدة بيرز: الأطفال لا يقدّرون عواقب أفعالهم.

وهنا سألها لوك عمّا إذا كان تومي قد ضايق مخدوميه بألاعيبه الصبيانية، فأسرعت السيدة بيرز تجيب قائلة: لم يكُن تومي يفعل ما فعل إلا بدافع من المرح، فمثلاً كان تومي بارعاً في تقليد غيره إلى درجة تدفعنا إلى الضحك الكثير، وقد قلّد السيد ألزورثي صاحب محلّ العاديّات والسيد هورثون العجوز، كما قلّد اللورد هوايتفلد على مرأى من اثنين من الخدم وهما يضحكان، وعندما فاجأه اللورد قام بطرده في الحال، وهذا ما كان متوقّعاً بطبيعة الحال،

ولكن اللورد لم يحمل عليه ضغينة لأنه وجد له عملاً آخَر.

- ولكن غيره من الناس لم يكُن مثله في التسامح.

- هذا حقيقي يا سيدي، ولكنني لن أذكر اسم أحد، وأنت لن تظن أن يفعل السيد آبوت ما فعله وهو الشخص المعروف بطباعه الحسنة وأسلوبه المهذّب.

- هل حدث بينه وبين تومي شيء؟

- أنا أعلم أن الصبي لم يقصد أي ضرر، وعلى أية حال فإذا كان في الأوراق شيء خاص لا يُراد لغريب الاطلاع عليه فلماذا تُترك على الطاولة؟

فقال لوك: بالضبط، فالأوراق الخاصة الموجودة في مكتب محام يجب وضعها في خزانة.

- هذا صحيح يا سيدي، وهذا ما أظنه، ويوافقني على ذلك زوجي السيد بيرز، ولا أظن أن تومي قرأ منه الشيء الكثير.

فسألها لوك قائلاً: أي شيء قرأه؟ أهي وصية؟

- لا يا سيدي، لم تكُن شيئاً كهذا، الأمر لا يعدو كونه خطاباً خاصاً من سيدة، وتومي لم يعرف حتى اسمها، وقد حدث ما حدث بسبب هذا الشيء التافه.

- لا بدّ من أن السيد آبوت من الأشخاص الذين يثورون بسرعة، إلا أنني سمعت أنه من الصعب الوقوف ضده، وقد كان هو والدكتور همبلبي في أشدّ حالات الخلاف قبل موت الأخير.

- لقد كانت مصادفة غريبة حقاً، خلاف مع الدكتور همبلبي

فإذا بالدكتور يموت ومعاملة قاسية لتومي فإذا بتومي يموت! ولا بد أن هذين الحادثين سيدفعان السيد آبوت إلى الحذر في أقواله.

وصمتت السيدة بيرز بُرهة ثم استطردت قائلة: وكذلك الحال مع هاري كارتر صاحب مطعم النجوم السبعة، إذ تبادل الاثنان الكلام اللاذع قبل موت كارتر بأسبوع واحد، إلا أن السباب قد صدر عن كارتر الذي ذهب وهو ثمل إلى منزل آبوت ونعته بأشنع الألفاظ بأعلى صوته. مسكينة السيدة كارتر؛ لقد قاست معه كثيراً وكان موته بالنسبة إليها بمثابة رحمة لها.

- ألم يترك وراءه ابنة أيضاً؟

- آه، أنا لست بالسيدة التي تردّد الشائعات.

وكان هذا القول غير متوقّع ولكنه كان مشجعاً، لذا أرهف لوك أذنيه عندما أكملت حديثها قائلة: الأمر لا يعدو مجرّد أقوال، فالآنسة كارتر شابة جميلة ولولا الفرق في المستوى الاجتماعي لما كانت توجد غرابة، ولا يمكن للمرء أن ينكر الشائعات لا سيما بعدما ذهب كارتر إلى منزل آبوت وهو يصرخ ويهدّد ويتوعّد.

قال لوك: يبدو أن السيد آبوت من النوع الذي يولَع بالفتاة ذات الجمال!

فقالت السيدة بيرز: هذه هي الحال بالنسبة إلى معظم الرجال، وهم لا يقصدون شيئاً سوى كلمة عابرة، ولكن مثل هذا الأمر يصبح شيئاً ملحوظاً في مثل هذا المكان.

دفع لها لوك ثمن ما اشتراه ثم حياها مودّعاً وسار في طريقه، وراح يحدّث نفسه قائلاً: الآن أمامنا ما يمكن أن يُتهَم به آبوت. لقد

قرنته بثلاث من الضحايا، فقد تشاجر مع همبلبي وكارتر وتومي بيرز، وقد مات الثلاثة، فماذا بشأن الفتاة آمي جيبز؟ وما ذلك الخطاب الخاص الذي اطّلع عليه الصبي؟ هل عرف مَن الذي أرسله أم تُراه لم يعرف؟ ربما لم يقُل ذلك لوالدته. لنفرض أنه عرف اسم مرسِل الخطاب وأن آبوت رأى أنه من الضروري أن يُغلق فمه، وهذا ممكن الحدوث. هذا هو كل ما يمكن للمرء أن يقوله، إنه أمر ممكن، ولكنه ليس سبباً كافياً.

وزفر لوك زفرة ثم استطرد قائلاً في نفسه: هذه القرية المشؤومة بدأت تحطّم أعصابي؛ فهي هادئة بريئة ولكن سلسلة من الجرائم الحمقاء تُرتكب فيها طوال الوقت ولا أحد يدري. أم تراني أنا الأحمق؟ هل كانت لافينيا بينكرتون حمقاء؟ على أية حال قد لا يعدو الأمر أن يكون مجرّد مصادفات.

ثم رفع بصره فإذا به يرى أمامه هضبة آسن ريدج التي شهدت طقوس سحر ومشاهد قسوة وتعذيب ودماء تسيل إرضاءً لشهوات شريرة في أزمان ماضية. وفجأة رأى شخصين يسيران عرفهما بسهولة، فقد كانا بريدجت وألزورثي، وكان الأخير يحرّك يديه بحركات عصبية ورأسه منحن نحو بريدجت، وكانا أشبه بشخصين جسّدتهما أعذب الأحلام ويكاد يشعر المرء بأن أقدامهما لا تترك صوتاً مسموعاً. كما رأى شعر بريدجت الأسود وهو يتطاير خلف رأسها بفعل الرياح، ومرّة أخرى أحسّ بذلك السحر الغريب يتملّكه فقال في نفسه: لقد سحرتني. نعم، سحرتني.

ووقف ساكناً في مكانه وقد احتواه شعور غريب، ثم قال في نفسه: تُرى مَن الذي يشفيني من ذلك السحر؟ لا أحد.

* * *

الفصل العاشر

استدار لوك بعدما سمع صوتاً رقيقاً يسأله عمّا إذا كان هو السيد فيتز ويليام، فوجد أمامه فتاة على درجة ملحوظة من الجمال ذات شعر كستنائي وعينين داكنتَي الزرقة، وكانت حُمرة الخجل تغطي وجهها، فردّ عليها لوك قائلاً: نعم، أنا.

- أنا روز همبلبي. لقد أخبرتني بريدجت بأنك تعرف أشخاصاً كانوا يعرفون أبي.

فاحمرّ وجه لوك ثم قال: كان ذلك منذ وقت طويل أيام كانوا يعرفونه وهو شاب قبل أن يتزوج.

فبدا على روز أنها صُدمت بعض الشيء، ولكنها راحت تقول: أنت تؤلّف كتاباً، أليس كذلك؟

- بلى، أعني أنني أدوّن ملاحظاتي التي سأضمّنها كتابي عن المعتقدات المحلية وما أشبه ذلك.

- يبدو أن الكتاب سيكون مثيراً جداً.

- بل من المحتمل أن يكون مملاً جداً.

- آه! لا، بل أنا واثقة ممّا أقول.

فابتسم لوك لها وحدّث نفسه قائلاً: إن الدكتور توماس رجل سعيد الحظ!

ثم قال: يوجد أشخاص في مقدورهم أن يحيلوا أمتع الموضوعات إلى موضوعات مملّة لا يتحمّلها أحد، وأظن أنني من هؤلاء.

- ولماذا تقول ذلك؟

- لا أعرف، ولكنني أعتقد أن هذا يزداد يوماً بعد يوم.

فقالت روز همبلبي: قد تكون من هؤلاء الأشخاص الذي يُحيلون الموضوعات المملّة إلى موضوعات شيقة جداً.

- هذا ظن يدلّ على ظُرفك، فشكراً لك.

فابتسمت روز همبلبي ثم قالت: هل تؤمن بالمعتقدات المحلية؟

- هذا سؤال صعب؛ فقد يهتمّ المرء بأشياء لا يؤمن بها.

فقالت الفتاة بشكّ واضح: أجل، أظن ذلك.

- هل تتطيّرين؟

- لا، لا أظن ذلك، وإن كنت أظن أن الأحداث تتلو بعضها على شكل موجات.

- أية موجات؟

- موجات من الحظ السيئ أو الحظ الحسن. أعني أنني شعرت بأن ويتشوود وقعت تحت موجة من الحظ السيئ مؤخّراً، فأبي قد مات، ثم تدهم سيارة الآنسة بينكرتون، ثم ذلك الصبي

الذي سقط من النافذة... بدأت أشعر بأنني أكره هذا المكان وبأنه يجب عليّ أن أتركه.

وعلت أنفاسها فراح لوك ينظر إليها وهو يفكر ثم قال: إذن أنت تشعرين بهذا؟

- أنا أعرف أن هذا أمر سخيف وأظن أن مرجع ذلك هو موت والدي المفاجئ، ثم بعد ذلك الآنسة بينكرتون. لقد قالت...

ثم توقّفت فسألها لوك قائلاً: ماذا قالت؟ لقد كانت سيدة عجوزاً ظريفة، حتى إنني فكرت في أنها تشبه عمّة لي.

فأشرق وجه روز وقالت: آه، هل كنت تعرفها. لقد كنت أحبها كثيراً، وكانت هي تحب أبي مع أنني كنت أظنها غريبة الأطوار في بعض الأحيان؛ إذ يظهر أنها كانت خائفة من حدوث شيء ما لأبي، بل إنها كادت أن تحذره وخصوصاً مما يتعلّق بالحوادث، ثم حدث أنها كانت غريبة جداً في تصرفاتها في ذلك اليوم قبل ذهابها إلى لندن، وأعتقد أنها كانت من ذلك النوع من الناس الذين يتمتّعون بمعرفة المستقبل؛ فقد كانت تعرف أنه سيحدث شيء لها، ولا بدّ أنها عرفت أن شيئاً سيحدث لأبي أيضاً. هذا أمر مخيف!

ثم تحركت خطوة في اتجاهه فقال لوك: يمكن للمرء أن يتنبأ بالمستقبل أحياناً. هذا من الأمور المألوفة.

- لا، أظنه أمراً غير طبيعي حقاً! فهي حاسة يفتقدها معظم الناس، وعلى أية حال فذلك يقلقني.

- يجب أن لا يستبدّ بك القلق، وتذكّري أن كل ذلك أصبح

بالنسبة إليك ماضياً، وليس من المستحسن أن يعود المرء إلى الماضي فالمستقبل هو الذي يجب أن نعيش من أجله.

ظهر التردّد على روز وهي تقول: أعلم ذلك، ولكن يوجد ما هو أكثر منه ويتعلّق بابنة عمك.

- ابنة عمي؟ بريدجت؟!

- نعم، فقد كانت الآنسة بينكرتون قلقة عليها بصورة ما؛ إذ كانت تسألني عنها دائماً، وأظنها كانت خائفة عليها أيضاً.

فاستدار لوك فجأة وراح يفحص الهضبة المجاورة ببصره، ثم شعر بالخوف دون سبب، فبريدجت وحدها مع ذلك الرجل ذي اليدين الغريبتين. ولكنه قال في نفسه: هذه أوهام، لا بدّ أنها أوهام، فألزورثي رجل غير مؤذٍ يمتلك متجراً.

وقرأت روز ما يدور في ذهنه فسألته قائلة: هل تحب السيد ألزورثي؟

- لا.

- جيوفري... أعني الدكتور توماس لا يحبه هو الآخَر.

- وماذا عنك أنت؟

- لقد سمعت عنه كثيراً من الأقوال، فقد قيل لي إنه يمارس حفلاً غريباً في ساحة الساحرات، وقد حضر العديد من أصدقائه من لندن وكان منظرهم غريباً! وقد اشترك تومي بيرز معهم في ذلك الحفل.

فسألها لوك بحدّة قائلاً: أتقولين تومي بيرز؟

- نعم، وكان يرتدي قناعاً ورداء غريبين.

- متى حدث ذلك؟

- منذ مدّة، أظن أن ذلك كان في شهر مارس.

- يبدو أن تومي بيرز كان مشتركاً في كل شيء يحدث في هذه القرية!

قالت روز: لقد كان فضولياً إلى درجة كبيرة شغوفاً بمعرفة كل ما يحدث.

فقال لوك: من المحتمل أنه عرف أكثر مما يجب.

- لقد كان صبياً ذا ميول شريرة، فقد كان يحب تقطيع النحل وتعذيب الكلاب.

- لقد كان صبياً من ذلك النوع الذي لا يشعر أحد بالرثاء لهم إذا ماتوا.

- أجل، أظن ذلك مع أن الأمر كان محزناً بالنسبة إلى والدته.

- علمت أن لديها الآن خمسة أطفال يعزّونها عن فقده، ولكن يا له من لسان ذلك الذي تملكه!

- إنها تتحدّث كثيراً، أليس كذلك؟

- لقد شعرت بأنني أصبحت أعرف تاريخ حياة كل فرد في القرية بعد أن اشتريت منها علبة لفائف تبغ!

- هذا هو أسوأ شيء في مثل هذا المكان؛ فكل فرد يعرف

كل شيء عن الآخرين.

فقال لوك: لا.

وهنا نظرت إليه روز متسائلة، فقال لوك بلهجة ذات مغزى: لا يوجد شخص يعرف كل شيء عن شخص آخَر.

- أجل، أظن أن هذا ليس ممكناً حقاً.

فقال لوك: ولا حتى أقرب الناس إلى الشخص.

- أظنك على حق، ولكنني كنت أودّ أن لا تذكر مثل هذه الأشياء يا سيد فيتز ويليام.

- هل هذا يخيفك؟

وببطء أومأت برأسها، ثم استدارت فجأة وهي تقول: يجب عليّ أن أذهب الآن، وإذا رغبت فتعالَ وزرنا وأظن أن والدتي ترغب في أن تراك؛ فأنت تعرف أصدقاء أبي منذ زمن بعيد.

ثم سارت ببطء وقد حنت رأسها إلى الأمام كأنها تحمل فوقه ثقلاً ينوء تحته، في حين وقف لوك ينظر إليها، ثم شعر بالرغبة الملحّة في أن يقي تلك الفتاة ويحميها، ولكنْ من أي شيء يحميها؟ ثم هزّ رأسه بضيق لأنه لم يجِد جواباً على سؤاله، ثم دار في خلده أن الفتاة أفضل بكثير من الدكتور توماس ذلك المتعالي ذي الأعصاب الهادئة.

ثم أفاق لوك من تأملاته على صوت خطوات قريبة منه، ورفع بصره ليرى السيد ألزورثي مقبل باتجاهه من ناحية الهضبة وعيناه متجهتان نحو الأرض وهو يبتسم لنفسه. وعندما رفع ألزورثي رأسه

وجد نفسه وقد التقت عيناه الباسمتان بخبث بعينَي لوك، ومرّت لحظة قبل أن يتذكّر مَن الذي أمامه، وفي لحظة واحدة حدث تغيّر شامل لألزورثي، فقد أصبحت النظرة الظاهرة في العينين نظرة شاب غِرّ طائش، ثم قال: طاب صباحك يا سيد فيتز ويليام.

- طاب صباحك، هل كنت تتأمّل جمال الطبيعة؟

فتحرّكت يدا ألزورثي الطويلتان الشاحبتان بحركة احتجاج وقال: لا، أنا أكره الطبيعة فهي قاسية وجافة وليس فيها خيال، ودائماً أقول إن المرء لن يمكنه الاستمتاع بالحياة حتى يضع الطبيعة في مكانها الصحيح.

- وكيف تفعل ذلك؟

فقال ألزورثي: هناك شتى الأساليب، ففي مكان مثل هذا توجد عدّة وسائل للتسلية إذا كان المرء ذواقاً ولديه الجرأة. أنا شخص أتمتع بالحياة يا سيد فيتز ويليام.

- وهكذا أنا.

- هل تعرف أن التعقل هو العبء الكبير الذي لا يمكن تحمّله يا عزيزي، يجب على المرء أن يكون مجنوناً وشاذاً غير عادي كي يرى الحياة من زاوية جديدة جذّابة.

- ما تقوله فيه جزء من الحقيقة.

ثم حيّاه لوك وسار في طريقه وهو يفكر قائلاً: لا شكّ في أنني أتخيّل أشياء لا وجود لها؛ فهذا الشخص لا يعدو أن يكون حماراً.

ولكنه سار في طريقه بسرعة وهو لا يشعر بالاطمئنان، وراح

يسأل نفسه قائلاً: أين بريدجت؟ أهي على ما يرام؟ لقد جئنا إلى هنا معاً وها أنا ذا أعود وحدي.

وعندما استدار مع الطريق وجد نفسه في مكان معشوشب قيل له من قبل إنه يُطلق عليه اسم ساحة الساحرات، لأنه يقال إن الساحرات كُنّ يجتمعن فيه في أثناء احتفالاتهن. وفجأة شعر بموجة من الارتياح لأنه وجد بريدجت جالسة هناك وقد أسندت ظهرها إلى صخرة، وكانت منحنية في جلستها وقد وضعت رأسها بين ذراعيها، فسار مسرعاً متّجهاً ناحيتها وقال: بريدجت؟

وببطء رفعت وجهها من بين يديها، فشعر بالاضطراب عندما وقع نظره على وجهها؛ فقد رآها وكأنها عائدة لتوّها من رحلة بعيدة وتجد صعوبة في التآلف مع هذه الحياة، فقال لوك: هل أنت على ما يُرام؟

ومرّت دقيقة أو دقيقتان قبل أن تجيب، وكأنها لم تعُد بَعدُ من عالمها الذي كانت تعيش فيه، وشعر لوك بأن كلماته قد قطعت شوطاً بعيداً قبل أن يصل معناها إلى التي يحدّثها، ثم قالت: طبعاً أنا على ما يُرام، ولماذا لا أكون كذلك؟

كان صوتها حاداً وتكاد نبرة العداء تظهر فيه، فابتسم لوك وقال: لا أعلم! ولكنني شعرت بالقلق من أجلك فجأة.

- لماذا؟

- أظن أن السبب يرجع إلى جو المآسي الذي أعيش فيه في الوقت الحاضر مما يجعلني أرى أشياء غير طبيعية، فإذا غبت عنّي ساعة أو ساعتين فبطبيعة الحال أعتقد أن ما سأراه بعد ذلك هو جسدك ملقى في حفرة، وهو ما يصلح في تمثيلية أو رواية.

فقالت بريدجت: في العادة البطلات لا يلحق بهن الموت.

- أجل، ولكن...

وتوقّف لوك في الوقت المناسب، فقالت: ماذا كنت ستقول؟

- لا شيء.

وشكر العناية الإلهية على أنه توقّف في الوقت المناسب؛ إذ ليس بمقدور شخص أن يقول لفتاة جميلة جذابة: "ولكنك لست البطلة"، فقالت بريدجت: عادةً البطلات يُخطفن أو يُسجَنّ، إنهن في خطر دائماً ولكنهنّ لا يَمُتنَ أبداً.

فقال لوك: ولا يختفين إطلاقاً... ثم راح يقول: إذن هذا هو المكان المسمى بساحة الساحرات؟

- أجل.

ثم نظر إليها وهي جالسة وقال برقّة: كل ما تحتاجين إليه هو يد مكنسة.

- أشكرك، لقد قال لي السيد ألزورثي نفس الشيء.

- لقد قابلته منذ لحظات.

- هل تحدّثت إليه؟

- نعم، وأظنه حاول أن يضايقني.

- وهل أفلح؟

- أساليبه تتميّز بالطفولية.

وصمت بُرهة ثم عاد ليقول: ألزورثي شخص غريب، ففي لحظة يظن المرء أنه لا خطر منه، وبعد لحظة يعجب المرء ويسأل نفسه عمّا إذا كان الأمر غير ذلك تماماً.

فرفعت بريدجت بصرها إليه وقالت: هل شعرت بذلك أنت أيضاً؟

- إذن أنت تتفقين معي في الرأي؟

- أجل.

وانتظر لوك قليلاً حتى قالت بريدجت: هناك شيء غريب في ذلك الشخص! لقد قضيت ليلة أمس دون نوم أعصر ذهني وأفكر في كل شيء، ويبدو لي أنه لو كان يوجد قاتل فلا بدّ لي أن أعرف مَن هو، أعني أنه لا بدّ وأنه يحيا هنا. ففكرت وفكرت، ثم وصلت في تفكيري إلى ما يأتي: لو كان يوجد قاتل فلا شكّ في أنه مجنون.

فسألها لوك وهو يتذكّر ما قاله له الدكتور توماس قائلاً: أنت لا تظنين أن القاتل قد يكون عاقلاً مثلي أو مثلك، أليس كذلك؟

- ذلك الطراز ليس من القتلة. لا بدّ أن يكون ذلك القاتل مجنوناً، وهذا ما جعلني أفكّر في ألزورثي كما ترى أنت؛ فهو غريب الأطوار عدا كل الموجودين هنا ولا يمكن إنكار ذلك.

فقال لوك بشكّ: يوجد كثيرون غريبو الأطوار مثله ولكن لا ضرر منهم.

- نعم، ولكنني أظن أن الأمر قد يكون أكثر من ذلك لأن يديه منظرهما غريب!

- هل لاحظت ذلك؟ هذا أمر غريب حقاً! لقد لاحظت

ذلك أنا أيضاً.

- من الغريب أن يديه تؤثّران هذا التأثير في مَن يراهما، ومع كل ذلك لا يمكن إدانة شخص بأنه قاتل بسبب أن يديه غريبتان.

- صحيح، ما نريده الآن هو الدليل، الدليل هو الشيء الوحيد الذي ينقصنا. لقد كان الرجل حذراً جداً. إنه قاتل حَذِر ومجنون حذِر.

فقالت بريدجت: لقد حاولتُ أن أساعدك.

- هل تعنين مع ألزورثي؟

- نعم، فقد ظننت أنه ربما أمكنني الإيقاع به بدلاً منك، وقد بدأت في ذلك.

- قصّي عليّ ما حدث.

- حسناً، يبدو أن له أصدقاء كريهين يأتون إلى هنا بين الحين والآخَر للاحتفال.

- هل تعنين بذلك حفلات غريبة؟

- شيء من ذلك القبيل، ومن الواضح أنهم يستمتعون بوقتهم.

- يمكنني أن أُضيف إلى ما ذكرتِه شيئاً، وهو أن تومي بيرز قام بدور ما في أحد احتفالاتهم، وقد كان يرتدي رداءً أحمر في أثنائها.

- إذن فقد كان يعرف ما يحدث.

- أجل، وربما يوضح ذلك سبب موته.

- هل تعني أنه تحدّث عمّا رأى؟

- نعم، أو أنه حاول أن يستفيد من ذلك بابتزاز الأموال عن طريق التهديد.

فقالت بريدجت وهي تفكّر: أنا أعرف أن كل ذلك شيء خيالي، ولكن يبدو لي أن الأمر بخلاف ذلك إذا ما فكرنا في ألزورثي.

- أجل، أنا أوافقك، فالأمر قد يصبح ممكناً بدلاً من أن يكون غير معقول.

فقالت بريدجت: والآن قد توصّلنا إلى إيجاد علاقة بين كل من تومي بيرز وآمي جيبز مع ألزورثي.

- ولكن ما وضع كل من صاحب المطعم وهمبلبي؟

- لا توجد أية علاقة بينهما وبين ألزورثي إلى الآن.

- هذا حقيقي بالنسبة إلى صاحب المطعم، ولكنني أتوقّع الدافع إلى إزالة همبلبي من الطريق. لقد كان طبيباً وربما فطن إلى أن حالة ألزورثي غير طبيعية.

- هذا ممكن.

ثم ضحكت بريدجت وقالت: لقد قمت بدوري على خير ما يُرام في هذا الصباح، فقد ذكرت له أن إحدى جداتي كادت أن تُحرَق بسبب اتهامها بمزاولة السحر فوجدت أن قولي هذا قد رفع من قدري عنده، وأظنه سيدعوني إلى الإسهام في الاحتفال القادم الذي سيقيمه.

فقال لوك: بريدجت، كوني حذرة بالله عليك.

فنظرت إليه بدهشة، وهنا قال لوك: لقد قابلت ابنة همبلبي منذ قليل، وكنا نتحدّث عن الآنسة بينكرتون وقد أخبرتني بأن الآنسة بينكرتون كانت قلقة بشأنك.

فقالت بريدجت بصوت مَن لا يصدّق ما سمع: ما هذا؟ الآنسة بينكرتون كانت قلقة من أجلي أنا؟!

- هذا ما ذكرته روز همبلبي.

- هل قالت روز همبلبي ذلك؟

- نعم.

- وماذا قالت أيضاً؟

- لا شيء.

- أأنت واثق؟

- واثق كل الثقة.

ثم ساد صمت ختمته بريدجت بقولها: فهمت.

فقال لوك: لقد كانت الآنسة بينكرتون قلقة على همبلبي ومات، والآن أسمعُ أنها كانت قلقة عليك.

فضحكت بريدجت، ثم وقفت وهزّت رأسها فتطاير شعرها حول رأسها وقالت: لا تقلق، لن يحدث لي مكروه.

* * *

الفصل الحادي عشر

استند لوك إلى ظهر مقعده الموجود في الطرف الآخَر من منضدة مدير المصرف ثم قال: أشكرك كثيراً لأنني أخذت جزءاً كبيراً من وقتك الثمين.

فهزّ السيد جونز يده دلالة على عدم الاهتمام في حين ظهرت على وجه الصغير الممتلئ علامات السرور وقال: بل نحن نُسرّ برؤية الغرباء دائماً، أما هذه البقعة فهي هادئة حقاً كما رأيت يا سيد فيتز ويليام.

- هذه البقعة مكان جميل مليء بالمعتقدات.

فتنهد السيد جونز وقال: الأمر يقتضي مزيداً من الوقت للتثقيف كي تزول تلك المعتقدات.

وصمت بُرهة ثم قال: لقد أحسن اللورد هوايتفيلد إلى هذه المنطقة؛ فهو يدرك المساوئ التي قاسى منها وهو صبي ويأمل في أن يكون الجيل الحاضر أفضل بكثير مما كان هو عليه.

- ولكن العقبات التي صادفته لم تمنعه من تكوين ثروة كبيرة.

- هذا صحيح لأن لديه مقدرة كبيرة.

- أو حظّ؟

ظهر على وجه السيد جونز الامتقاع وكأنه صُدم فقال لوك: الحظّ هو الشيء الوحيد الذي يُحسب حسابه، فلو أخذنا مثالاً لقاتل وسألنا ما الذي يجعله قاتلاً ينجح في إكمال جريمته ولا يُكتشف أمره، أهي المقدرة أم الأمر مرجعه إلى الحظّ فقط؟

فاعترف السيد جونز بأنه ربما كان الأمر مرجعه إلى الحظّ، ثم استطرد لوك فقال: خذ ذلك الرجل كارتر، صاحب أحد المطاعم هنا مثلاً، فمن المحتمَل أنه كان يثمُل ستّ ليالٍ في كل أسبوع، ومع ذلك ففي إحدى الليالي يذهب ويلقي بنفسه من فوق الجسر في النهر، الحظّ مرّة أخرى.

فقال مدير المصرِف: لقد كان ذلك بمثابة حظّ حسن لبعض الناس.

- ماذا تعني؟

- أعني بالنسبة إلى زوجته وابنته.

- آه! نعم، طبعاً.

وطرق البابَ أحدُ الكتبة في المصرف، ثم دخل يحمل بين يديه أوراقاً، وقام لوك بإعطاء صورة من توقيعه على ورقتين، وبعد ذلك تناول دفتر شيكات ثم قام وقال: أنا سعيد لأنني أنهيت كل شيء، وقد حالفني الحظّ نوعاً ما في سباق الدربي لهذا العام، ولكن كيف كان الحظّ معك؟

فقال السيد جونز وهو يبتسم إنه لا يراهن، ثم أضاف بأن زوجته ضد المراهنة، فقال لوك: إذن لم تذهب لمشاهدة سباق

الدربي؟

- أجل، لم أذهب.

- هل ذهب لمشاهدته أحدٌ من هنا؟

- لقد ذهب الميجور هورثون لأنه يهتمّ جداً بالسباق، ومن عادة السيد آبوت أن يأخذ إجازةً في ذلك اليوم مع أنه لم يراهن على الجواد الفائز.

- لا أظن أن كثيراً من الناس راهن عليه.

ثم خرج بعد أن ودّع مدير المصرف، ولم يرَ ما يدعو إلى إدراج اسم السيد جونز في قائمة المشتبه فيهم؛ إذ لم يظهر أي ردّ فعل على الأسئلة التي ألقاها عليه لوك، وكان من الصعب على المرء أن يتصوّر أنه القاتل، فضلاً عن أنه لم يكُن غائباً في يوم سباق الدربي. إلا أن زيارة لوك لم تكُن بلا فائدة؛ فقد حصل على نبأين صغيرين يضيفهما إلى معلوماته هما أن كلاً من السيد آبوت والميجور هورثون كانا بعيدَين عن ويتشوود في يوم سباق الدربي، وعلى ذلك فإن واحداً منهما كان يمكنه أن يوجد في لندن عندما دهمت السيارة الآنسة بينكرتون.

ومع أن لوك لم يكُن يشتبه في الدكتور توماس وقتئذ إلا أنه لو تأكّد من أن الأخير كان في ذلك اليوم في ويتشوود يزاول مهمّته لشعر بالراحة. ورأى أن يتحقّق من تلك النقطة، كما أنه يوجد ألزورثي، فهل كان في ويتشوود يوم سباق الدربي؟ فإذا كان هناك فإن الافتراض القائل بأنه هو القاتل يضعف. ومع أن لوك كان يدرك أن احتمال موت الآنسة بينكرتون كان نتيجة حادثة غير مدبّرة أمر محتمَل فإنه كان يرفض تلك النظرية لأن موتها جاء في وقت يتّفق

مع رغبات القاتل.

وركب لوك سيارته وقادها إلى أن وصل إلى ورشة بيبويل التي كانت في نهاية شارع هاي ستريت؛ فقد كان في سيارته عدّة أشياء تقتضي الإصلاح ويريد أن يناقش مختصاً فيها. وأنصت إليه ميكانيكي شاب وسيم، ثم بدأ الاثنان يفحصان آلات السيارة عندما سمعا صوتاً ينادي قائلاً: جيم، تعالَ إلى هنا للحظة.

فأطاع الميكانيكي النداء. جيم هارفي، هذا هو خطيب آمي جيبز. وبعد قليل عاد جيم وهو يعتذر، ثم عاد الحديث الذي كان يتناول الناحية الفنية بين الرجلين، ووافق لوك على أن يترك السيارة في الورشة لإصلاحها، وعندما حان وقت ذهابه سأل بلهجة عادية قائلاً: هل كان حظك حسناً في سباق الدربي لهذا العام؟

- لا يا سيدي؛ فقد راهنت على كلاريغولد.

- لا أظن أن الكثير راهن على غوغوبي الثاني.

- أجل يا سيدي، ولا أظن أن صحيفة واحدة اختارته.

فهزّ لوك رأسه وقال: السباق أمر لا يمكن التأكّد منه. هل شاهدت السباق بنفسك في يوم من الأيام؟

- لا يا سيدي، وأود أن أراه، وقد طلبت إجازة في هذا العام لوجود تذْكِرة رخيصة للذهاب إلى لندن ومنها إلى ميدان السباق في أبسوم، ولكن صاحب العمل لم يوافق لأن عندنا نقصاً في الأيدي العاملة وكان لدينا الكثير من العمل في ذلك اليوم.

فأومأ لوك برأسه، ثم ذهب في طريقه بعد أن قام برفع جيم هارفي من قائمة المشتبَه بهم. وسار إلى المنزل في طريق النهر،

وهناك صادف الميجور هورثون وكلابه أيضاً، وكان الميجور على نفس الحالة التي رآها عليه في المرّة السابقة وهو يصرخ في كلابه. ومرّة أخرى حملق الميجور إلى لوك، ولكنه في تلك المرّة قال: معذرةً، أنت السيد فيتز ويليام، أليس كذلك؟ أنا هورثون، الميجور هورثون، وأظن أنني سأقابلك غداً في مانور آسن في مباراة التنس التي دعتني إلى حضورها الآنسة كونواي ابنة عمّك، أليس كذلك؟

- بلى.

- لقد ظننت ذلك.

ثم سار الرجلان معاً في حين راح الميجور هورثون يتحدّث عن موضوع الكلاب، ولا سيما كلاب البولدوغ، إلى أن وصلا إلى بوابة منزل الميجور، ففتح الباب الذي لم يكُن مغلقاً ودخل الاثنان إلى المنزل، ثم دخلا غرفة ممتلئة بأرفف الكتب تنبعث منها رائحة الكلاب. وانهمك الميجور في إعداد الشاي في حين راح لوك ينظر إلى ما حوله، فوجد الجدران عليها صور الكلاب وصورة مرسومة لسيدة فوق المدفأة، ورفع الميجور رأسه فوجد ضيفه ينظر إليها فقال: هذه صورة زوجتي. لقد كانت امرأة عظيمة ووجهها يدلّ على أخلاق قوية، ألا تظن ذلك؟

- بلى، حقاً.

قالها لوك وهو ينظر إلى صورة المرأة المتوفاة، فقال الميجور: لقد كانت عظيمة! ماتت منذ أكثر من عام، وأنا منذ ذلك الوقت على غير ما كنت عليه من قبل.

- لماذا؟

فقال الميجور وهو يناوله الكوب: تفضل بالجلوس.

وجلس هو على مقعد آخَر، ثم قال: نعم، لم أعُد كما كنت من قبل.

- لا بدّ وأنك تفتقدها؟

- المرء يحتاج إلى زوجة تدفعه وإلا أصبح خاملاً. يا ولدي، أنا أعرف ما أتحدّث عنه، وتذكّر أنني لا أنكر أن الزواج يسبب ضيقاً للمرء في أول الأمر، وقد يكره نفسه ويلومها لأنه أصبح مقيّداً، ولكنه يعتاد الأمر بعد مدّة. والنساء جنس عجيب؛ إذ يُخيل إلى المرء أنه لا فائدة من محاولة إسعادهن، ولكن الحق (والحق يقال) إنهن يصنعنَ منا رجالاً. هل أنت متزوج؟

- لا.

- حسناً، ستصبح يوماً ما، وتذكّر أنه لا يوجد شيء مثل الزواج.

- ممّا يسعد المرء أن يسمع إنساناً يمدح الحياة الزوجية، ولا سيما في مثل هذا الوقت الذي أصبح فيه الطلاق أمراً سهلاً.

- أنا آسف لذلك الشاب الذي لا يتّصف بالعزيمة وتحمّل المسؤولية، وتذكّر أن ليديا كانت واحدة في الألف، فكل فرد هنا كان يحترمها ويبجّلها.

- أهكذا؟

- لقد كانت لا تتحمّل الهراء، وكان من عادتها أن تنظر إلى الشخص فإذا به ينكمش أمام نظرتها كهؤلاء الفتيات الخادمات اللاتي يحسبن أن الفرد سيتحمّل وقاحتهنّ، ولكن ليديا أعطتهن

درساً. هل تعرف أننا استبدلنا خمس عشرة خادمة وطاهية في مدة عام واحد؟

- هل كانت الحال هكذا دائماً، أي تطردونهن؟

- بطبيعة الحال خرج بعضهن باختيارهن، ولكن ليديا لم تهتم.

- ولكن ألم تجدا في الأمر مشقّة؟

- أنا لا أبالي إذا قمت بعمل شيء؛ فأنا طبّاخ ماهر، ولم أكُن أرغب في إرهاق ليديا لأنها كانت رقيقة.

- إذن فقد كانت غير قوية؟

هزّ الميجور هورثون رأسه ثم قال: لقد كانت تتمتّع بروح عالية ولم ترضَ بأن ترقد فريسة المرض. لقد عانت تلك المرأة ما عانت، ومع ذلك لم تجد من الأطباء شفقة؛ فهم قساة لا يعرفون شيئاً سوى الآلام الجسمانية، وأي شيء غير عادي لا يفهمون عنه شيئاً، كالدكتور همبلبي الذي يبدو أن كل فرد كان يظنه طبيباً بارعاً.

- وهل لك رأي غير ذلك؟

- بالطبع؛ لقد كان الرجل جاهلاً حقاً ولا يعرف شيئاً عن الاكتشافات الحديثة، وأشكّ في أنه سمع مجرّد سماع عن الحالات النفسية. لقد كان يعرف الحصبة والغدة الدرقية والعظام المكسورة على ما أظن، ولكن لا شيء غير ذلك. وفي النهاية تشاجرت معه لأنه لم يعرف حالة ليديا على الإطلاق، فأخبرته برأيي فيه بصراحة، فلم يقبله وغضب وقال لي إنني حُر في استدعاء أي

طبيب آخَر أختاره، وبعد ذلك أحضرنا الدكتور توماس.

- هل كان أفضل من الأول؟

- على وجه الإجمال كان أبرع من همبلبي، وإذا كان في مقدور أحد أن يشفيها من مرضها الأخير لكان الدكتور توماس هو ذلك الشخص، وفي الواقع كانت قد بدأت في التحسن، ولكن حدثت لها نكسة مفاجئة.

- هل كان الأمر مؤلماً؟

- نعم، آلام حادة وقيء وما شابه ذلك. لقد تعذبت تلك المرأة المسكينة! ومن الجدير بالذكر أن الممرّضتين اللتين كانتا موجودتين في المنزل لم تُظهرا أية ذرة من الشفقة، حتى إن ليديا اتهمتهما بوضع السمّ لها، وطبعاً هذا غير صحيح لأن كثيراً من المرضى يتخيّلون ذلك كما ذكر لي الدكتور توماس، وإن كان واقع الأمر يدلّ على أن هاتين الممرّضتين كانتا تكرهانها.

- أظن أن السيدة هورثون كان لها أصدقاء كثيرون هنا.

- كثير من الناس كانوا في غاية الرقّة، فمثلاً اللورد هوايتفيلد الذي كثيراً ما أرسل لها عنباً وخوخاً من حديقته، وكانت بعض السيدات يحضرنَ للجلوس معها مثل هونوريا وينفليت ولافينيا بينكرتون.

- هل كانت الآنسة بينكرتون تحضر كثيراً؟

- نعم، ومع أنها كانت عانساً عجوزاً إلا أنها مخلوقة رقيقة. وكانت في أشدّ القلق على ليديا، وكان من عادتها السؤال عن غذائها وأدويتها، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على اهتمام

كبير، ولكنني أرى أنه فضول لا داعي إليه.

فهزّ لوك رأسه مدركاً قصد الرجل الذي راح يقول: فأنا لا أتحمّل الجلبة، وهذا المكان مليء بالنساء، حتى إنه من الصعب على المرء الاستمتاع بلعب الغولف.

فسأله لوك قائلاً: وماذا عن ذلك الرجل الذي يمتلك محلاً للعاديّات؟

فأخرج الميجور هورثون صوتاً يدلّ على الاستهزاء وقال: إنه لا يلعب الغولف ومظهره أقرب إلى الأنوثة.

- هل مرّ عليه وقت طويل في ويتشوود؟

- نحو عامين، وهو شخص كريه. من الغريب أن ليديا كانت تحبه! ومن ذلك تعرف أنه لا يمكنك أن تثق برأي أية امرأة في الرجال، حتى إنها أصرّت على أن تتناول بعضاً من العقاقير التي يقوم بتحضيرها، وهي مادة وُضعت في زجاجة قرمزية رُسمت عليها علامات الأبراج من كل جانب، ومن المفروض أنها مكوّنة من عُصارة بعض الأعشاب التي قُطفت والقمر في حالة البدر! هذا كلام فارغ، ولكن النساء يصدقن ذلك، وأعترف بأنها تناولت ذلك العقار كله.

ثم أدار لوك دفّة الحديث وهو يأمل في أن لا يلاحظ الميجور هورثون ذلك، وكان محقاً في ظنه فقال: ما رأيك في ذلك المحامي آبوت؟ هل يعرف القانون جيداً؟ فأنا أرغب في استشارة قانونية وأفكر في الذهاب إليه.

فقال الميجور هورثون: يقولون إنه ذكي جداً ولكنني لا

أعرف الحقيقة. الواقع أنني تشاجرت معه ولم أرَه منذ مجيئه إلى هنا لكتابة وصية ليديا قبل موتها مباشرة، وأنا أرى أنه جبان، ولكن هذا لا يعني المساس بقدرته كمحام.

فقال لوك: طبعاً لا، ولكنه يبدو لي أنه شخص مشاكس لأنني سمعت أنه قد تشاجر مع كثيرين هنا.

فقال الميجور هورثون: مشكلته هي أنه شديد الحساسية ويظن أنه لا يوجد من هو مثله في الذكاء، وأي شخص يختلف معه في الرأي فكأنما أهان الذات الملكية في نظره. هل سمعت عن شجاره مع همبلبي؟

- هل تشاجرا معاً؟

- شجار من الطراز الأول، وهذا لا يدهشني؛ فقد كان همبلبي حماراً.

- لقد كان موته أمراً مؤسفاً.

- همبلبي؟ نعم، أظن ذلك. لقد تقاعس في أمر العناية المعتادة، ولكن التسمم الدموي أمر خطير ومن الواجب وضع صبغة اليود على أي جرح. هذا ما أفعله أنا، وهو احتياط بسيط، ولكن همبلبي الطبيب لم يفعل شيئاً مثل هذا وهذا يفصح عن غبائه.

ثم نظر لوك إلى ساعته فقال الميجور هورثون: هل ستذهب لتناول غدائك؟ حسناً، لقد سُررت بالتحدّث إليك ولا بدّ أن نجتمع مرّة أخرى. قلْ لي، هل تؤلّف كتاباً عن المعتقدات وما أشبه ذلك؟

- نعم، أنا...

فقاطعه الميجور قائلاً: يمكنني أن أقصّ عليك كثيراً من الأشياء المثيرة، فعندما كنت في الهند يا ولدي...

بعد عشر دقائق نجح لوك في الخلاص من الاستماع إلى قصص فقراء الهنود وحيلة الحبل الذي يرتفع في الهواء وما إلى ذلك، وعندما خرج إلى الهواء الطلق وسمع صوت الميجور الأجش وهو يصرخ في كلابه عجب ممّا سمعه منه عن الحياة الزوجية؛ إذ يبدو أنه يأسف حقاً على فقدان الزوجة التي يُجمعون كلهم على أنها كانت شرسة شراسة تقترب من شراسة النمر. وفجأة سأل نفسه عمّا إذا كان كل ما سمعه من الميجور ليس إلا تمويهاً بارعاً.

* * *

الفصل الثاني عشر

من حُسن الحظّ أن الجوّ كان حسناً في عصر اليوم المحدّد للعب التنس، وكان اللورد هوايتفيلد في حال نفسية جيدة وهو يقوم بدور المضيف مُظهِراً غبطته، كما أشار إلى أصله البسيط مراراً. وكان عدد اللاعبين ثمانية هم اللورد هوايتفيلد وبريدجت ولوك وروز همبلبي والسيد آبوت والدكتور توماس والميجور هورثون وهيتي جونز (وهي ابنة مدير المصرف)، وهي فتاة دائمة الضحك.

وفي الشوط الثاني وجد لوك نفسه زميلاً لبريدجت في اللعب ضد اللورد هوايتفيلد وروز همبلبي، وكانت روز لاعبة جيدة سبق لها اللعب في المباريات وبذلك عوّضت الأخطاء التي كان يقع فيها اللورد هوايتفيلد، ووصل الشوط إلى نتيجة خمس نقاط إلى ثلاث لصالح لوك وبريدجت، وعندئذ لاحظ لوك أن اللورد هوايتفيلد بدأ يفقد أعصابه ويتصرّف كالأطفال. واستمرّ اللعب ولكن لوك لاحظ أن بريدجت بدأت تخطئ عامدة في رمي الكرة حتى انتهى الشوط بفوز اللورد وزميلته بنتيجة ثمان نقاط إلى ست.

وبعد ذلك ثار جدل بشأن اللاعبين في الشوط التالي، وانتهى الأمر إلى أن تلعب روز مع السيد آبوت ضد الدكتور توماس

والآنسة جونز. وجلس اللورد هوايتفيلد وهو يجفّف عرقه ويبتسم بسرور وقد عاد إليه مرحه، ثم بدأ يتحدّث مع الميجور هورثون عن سلسلة من المقالات بدأت بنشرها إحدى الصحف. والتفت لوك إلى ناحية بريدجت وقال: هلا أريتني حديقة الخضروات.

- ولماذا تريد مشاهدة الخضراوات؟

- لأنني أحب الكرنب.

- ألا تكتفي بالبسلة؟

- بلى.

ثم سارا إلى أن وصلا إلى حديقة الخضروات التي كانت خالية من الذين يعملون فيها عادة. أشارت بريدجت إلى البسلة وقالت: ها هي شجيرات البسلة.

ولم يُعِر لوك البسلة أي اهتمام بل قال: لماذا تعمّدت أن نخسر الشوط؟

فارتفع حاجبا بريدجت قليلاً ثم قالت: أنا آسفة، فقد تعبت، كما أنني لا أُحسن لعبة التنس.

- ليس إلى هذا الحد، فما فعلتِه لا يخدع طفلاً.

- حسناً يا عزيزي الدكتور واطسون!

- ما السبب الذي دفعك إلى ذلك؟

- السبب واضح أيضاً، فجوردون لا يحب الهزيمة.

- وماذا عنّي أنا؟ لنفرض أنني لا أحب ذلك.

- أظن أن ذلك لا يستوي في الأهمية يا عزيزي لوك.

- هلاّ أوضحت قليلاً ما تعنينه بقولك هذا؟

- طبعاً إذا شئت ذلك، على المرء أن لا يتشاجر مع رب نعمته، وجوردون هو رب نعمتي لا أنت.

فجذب لوك نفسه بشدة ثم انفجر صارخاً بقوله: ماذا تعنين بزواجك بذلك الرجل القصير الكريه؟ لماذا تفعلين ذلك؟

- لأنني أتقاضى ستة جنيهات في الأسبوع كسكرتيرة له، أما إذا صرت زوجته فسيكتب لي مئة ألف من الجنيهات فضلاً عن علبة مليئة بالجواهر من الألماس واللآلئ، إلى غير ذلك من مستلزمات الحياة الزوجية.

- لتقومي بواجبات أخرى مختلفة، أليس كذلك؟

فقالت بريدجت ببرودة: هل يجب علينا أن نتّخذ هذا التصرّف بالنسبة إلى كل شيء في الحياة؟ إذا كنت تتصوّر جوردون رجلاً يقدّر الحياة الزوجية فأنت مخطئ؛ فليس جوردون إلا طفلاً صغيراً لم ينضج بعد وما يحتاج إليه هي أم وليست زوجة، ومما يؤسَف له أن والدته ماتت وله من العمر أربع سنوات، كما أنه يحتاج إلى شخص بالقرب منه يفخر به، شخص يبعث في نفسه الثقة ويستمع دائماً إليه وهو يقصّ كيف صنع نفسه بنفسه.

- إن لك لساناً ذلقاً، أليس كذلك؟

ردّت عليه بريدجت بحدّة قائلة: أنا لا أخدع نفسي بالخيالات إذا كان ذلك ما تعنيه؛ فأنا فتاة صغيرة السن على قدر من الذكاء والملامح العادية وبلا نقود، وأنا أزمع أن أحيا حياة شريفة،

ومهمّتي كزوجة لجوردون لن تختلف عن وظيفتي كسكرتيرة له، وأشكّ في أنه سيتذكّر أن عليه أن يقدّم إليّ تحية المساء بعد عام واحد، وكل الخلاف في قيمة الراتب.

ثم نظر كل منهما إلى الآخَر ووجهه به شحوب من الغضب، فقالت بريدجت: أنت رجل رجعي في أفكارك، أليس كذلك؟ ألن تقول بأنني أبيع نفسي من أجل المال؟

فقال لوك: يا لك من امرأة ذات دم بارد!

- هذا أفضل من أن أكون غبية صغيرة ذات دم حار.

- أهكذا؟

- نعم، وأنا أعني ما أقول.

فقال لوك ساخراً: تعنين ماذا؟

- أعرف معنى الاهتمام برجل، هل قابلت جوني كورنيش؟ لقد كنت مخطوبة له لمدّة ثلاثة أعوام، وكنت أحبه حباً جماً وأهتم به إلى درجة تؤلمني. حسناً، لقد تركني ليتزوج بأرملة ممتلئة الجسم ولكن دخلها السنوي يُقدّر بثلاثين ألفاً. مثل هذا العمل يشفي الإنسان من الغرام، أليس كذلك؟

فاستدار لوك وقد صدرت من فمه آهة ثم قال: ربما.

ثم ساد صمت طويل قطعته بريدجت بقولها: آمل في أن تدرك أنه ليس لديك أي حق في التحدّث معي كما فعلت؛ فأنت ضيف على جوردون.

- بل لي كل الحق.

- هذا هراء.

نظر لوك إليها وقد تلوّن وجهه بلون غريب وكأنه يعاني من ألم جسماني ثم قال: لي الحق، لي الحق في أن أهتمّ بك. لقد قلتِ إن الاهتمام الشديد يسبب ألماً.

فتراجعت بريدجت خطوة إلى الوراء وقالت: أنت...

- نعم، هذا أمر غريب، أليس كذلك؟ مثل هذا الشيء قد يدفعك إلى الضحك. لقد جئت إلى هنا لأقوم بعمل فجئت أنت وسحرتِني، هذا ما أشعر به؛ أشعر بأنك لو أشرت بإصبعك إليّ وقلت لي "تحوّل إلى ضفدعة" لتحوّلت إليها.

ثم اقترب منها خطوة وقال: أنا أحبك حباً عميقاً يا بريدجت، وإذا كنت أحبك بهذا القدر فلا تتوقعي منّي أن أفرح وأنا أراك تتزوجين برجل ذي لقب ممتلئ بالغرور له بطن كبير يفقد أعصابه إذا لم يَفُز في لعب التنس.

- وماذا تقترح عليّ أن أفعل؟

- أقترح أن تتزوجيني بدلاً منه، ولكن هذا الاقتراح سيؤدّي بك إلى موجة من الضحك بلا شكّ.

- من المؤكّد أن الضحك سيكون عالياً!

- تماماً، والآن قد عرف كلانا موقفه. ألا نعود إلى ملعب التنس؟ قد تجدينني شريكاً يلعب ليفوز هذه المرّة.

فقالت بريدجت وهي تراقبه: لقد كنت تنوي الزواج والاستقرار عندما عُدتَ إلى الوطن، أليس كذلك؟

- بلى.

- ولكن لم يكُن في ظنك الزواج بفتاة مثلي.

- لم يَدُر بخلدي الزواج بفتاة مثلك قطّ.

- أعرف ذلك، أعرف النوع الذي تفضّله.

- أنت فتاة ذكية جداً يا عزيزتي بريدجت.

- كنت تفكّر في فتاة ظريفة إنكليزية قلباً وقالباً، تهوى الريف وتعامل الكلاب معاملة حسنة. ومن المحتمَل أنك كنت تتخيّلها في رداء من التويد وهي تقلّب الخشب في المدفأة بطرف حذائها.

- وصفك جميل وجذّاب.

- أنا متأكّدة من ذلك. والآن هلاّ عدنا إلى ملعب التنس، يمكنك أن تلعب مع روز همبلبي فهي تجيد اللعب، وحينها ستكون واثقاً من فوزك.

- ونظراً لأنني رجل رجعي فأنا سأدع الكلمة الأخيرة لك.

ومرّة أخرى ساد صمت، ثم استدارت بريدجت فجأة وعادت إلى ملعب التنس وخلفها لوك. وبعد انتهاء اللعب تناول الحاضرون الشاي، وجلس اللورد هوايتفيلد يتحدّث إلى الدكتور توماس بحرارة عن زيارة قام بها حديثاً لمعامل أبحاث ويلرمان كرايتز فقال: لقد أردت أن أعرف كل شيء عن الاتجاهات الحديثة للاكتشافات العلمية لأنني أعتبر نفسي مسؤولاً عمّا يُنشَر في صحفي، فهذا عصر العلوم وعلى العلم أن يكون مبسّطاً كي تعرفه العامة. وقد أمسك بيدي ويلرمان نفسه وجلنا في معامله،

وقد طلبت منه أن يوكل المهمّة إلى أحد مساعديه، ولكنه أصرّ على أن يصحبني بنفسه.

فقال لوك: طبعاً.

وهنا نظر إليه اللورد هوايتفيلد نظرة امتنان ثم قال: وشرح لي كل شيء بوضوح كامل، ثم وافق على أن يقوم هو نفسه بكتابة أول مقال في سلسلة المقالات العلمية التي ستُنشر.

وبعد مدّة قامت روز همبلبي واستأذنت للانصراف فوقف لوك بجانبها وقال: هل تسمحين لي بمرافقتك إلى المنزل؟

فقالت له: لا مانع لدي مع أن المنزل قريب.

وسارا إلى أن وصلا إلى المنزل وهما يتحدّثان في شتى الموضوعات، وفجأة قال لوك: آنسة همبلبي، هل تسمحين لي بالتطفل؟

- أنا متأكّدة من أنك لن تكون متطفلاً.

- لا تكوني واثقة من نفسك هكذا، لقد أردت أن أقول بأن الدكتور توماس رجل سعيد الحظّ جداً.

فاحمرّ وجه روز خجلاً وابتسمت ثم قالت: إذن فقد سمعت؟

- هل كان من المتعيّن أن يبقى الأمر في طيّ الكتمان؟ أنا آسف.

- لا يوجد سرّ في هذا المكان.

- إذن أنتما مخطوبان حقاً، أليس كذلك؟

فأومأت برأسها وقالت: مخطوبان فقط، ولن نعلن تلك الخِطبة رسمياً لأن والدي كان معارضاً لها ومن غير اللائق إعلانها عقب موته مباشرة.

- هل كان والدك غير موافق؟

- حسناً، لم يكُن غير موافق بالضبط بل كان معارضاً لها.

- هل كان يظنكما صغيرَين؟

- هذا ما قاله.

- ولكنك تظنين أنه يوجد سبب غير ذلك، أليس كذلك؟

فحنت روز رأسها وقالت: بلى، أظن أن السبب يرجع إلى أن أبي لم يكُن يحب جيوفري.

- هل كانا على خلاف؟

- يبدو أن الأمر كان كذلك أحياناً، وبالطبع كان أبي شيخاً ذا أهواء وميول.

- وأظنه كان يحبك جداً، وكان لا يحب فكرة فقدانه لك، أليس كذلك؟

فوافقت روز على ذلك، فقال لوك: أم أن الأمر كان أكثر من ذلك؟ هل كان مصمّماً على أن لا يكون توماس زوجاً لك؟

- نعم، لقد كان أبي وجيوفري يختلف كل منهما عن الآخَر كل الاختلاف، وفي بعض الأحيان كانا يتشاجران، وكان جيوفري صبوراً، ولكن شعوره بعدم محبّة أبي إياه جعله يتحفّظ أكثر من عادته، ومن ثم فإن أبي لم يعرفه على حقيقته.

قال لوك: من الصعب التغلّب على الميول.

- أجل.

- هل يوجد سبب واضح لذلك؟ هل كان جيوفري يراهن على الجياد؟

- لا، ولا أظنه يعرف أي الجياد فاز في سباق الدربي.

- هذا غريب! أنا أكاد أقسم أنني رأيت الدكتور توماس في أبسوم في يوم سباق الدربي.

فأجابت روز قائلة: هل ظننت أنك رأيت جيوفري في سباق الدربي؟ لا، لم يكُن في مقدوره الذهاب؛ فقد كان في آشولد طوال النهار تقريباً ليفحص حالة رضيع.

- إن لك ذاكرة قوية.

ضحكت روز وقالت: أنا أذكر ذلك لأنه أخبرني بأن الوالدين أطلقا على المولود اسم غوغوبي، وعلى أية حال فجيوفري لا يذهب إلى السباق؛ فهو يشعر بضجر شديد إذا ما ذهب إلى هناك. ثم أضافت قائلة: هلاّ دخلت معي، أظن أن والدتي ترغب في رؤيتك.

فوافق لوك ودخلا إلى غرفة كانت تجلس فيها سيدة على مقعد، فخاطبتها روز قائلة: أمي، هذا هو السيد فيتز ويليام.

فصافح لوك السيدة في حين غادرت روز الغرفة بهدوء. قالت السيدة: أنا سعيدة برؤيتك يا سيد فيتز ويليام، لقد أخبرتني روز بأنك تعرف أصدقاء كانوا يعرفون زوجي من سنوات كثيرة انقضت.

- نعم يا سيدة همبلبي.

- كم كنت أودّ لو أنك قابلته! لقد كان رجلاً كبيراً وطبيباً عظيماً، ومَنّ الله بالشفاء على يديه على كثير من المرضى الذين يئسوا من الشفاء وذلك بقوة شخصيته.

فقال لوك برقّة: لقد سمعت الكثير عنه منذ أن حضرت إلى هنا.

وبعد انقضاء مدّة تخلّلها الحديث عن الدكتور همبلبي استأذن لوك، ثم صافحها مودعاً وسار متّجهاً إلى حيث يقيم. وفي الطريق دار في خاطره أن الدكتور توماس لم يكُن موجوداً في ويتشوود لمدّة جزء كبير من يوم سباق الدربي، ولم يكُن يقود سيارته. وويتشوود على مسافة خمسة وثلاثين ميلاً من لندن، فإذا فرضنا أنه كان يعالج حالة رضيع، فهل يوجد ما يؤيّد ذلك غير كلمته؟ من المفروض أنه يمكن التحقق من ذلك.

* * *

الفصل الثالث عشر

في صباح اليوم التالي استقرّ رأي لوك على أمر، فقد شعر بأنه وصل إلى النهاية في تحرّياته التي قام بها بطريقة غير مباشرة وأنه سيتحتّم عليه أن يظهر على حقيقته إن عاجلاً أو آجلاً، كما شعر بأنه من الأفضل له أن يفصح عن حقيقة مهمّته.

وتحقيقاً لتلك الخطة قرّر أن يزور هونوريا وينفليت التي لم تؤثّر فيه تأثيراً حسناً فحسب بل كان يظن أن لديها بعض المعلومات التي قد تفيده، فأراد أن يدفعها إلى أن تقول له ما يكون قد دار في مخيّلتها. وكانت لديه فكرة أن ما يراودها من ظن قد يكون قريباً من الحقيقة، لذا ذهب إلى منزلها، فقابلته الآنسة وينفليت مقابلة عادية دون أن تُظهر أية دهشة لزيارته، وجلست بجواره وهي تنظر إليه بعينيها اللتين تتميّزان بالذكاء، حتى إنه شعر بصعوبة في شرح السبب الذي جاء من أجله لزيارتها فقال: أظنك قد استنتجت أن سبب حضوري إلى هنا ليس فقط لتأليف كتاب عن المعتقدات المحلية يا آنسة وينفليت؟

فلم تردّ الآنسة وينفليت بل أمالت رأسها قليلاً وراحت تسمع ما يقوله لوك، فقال: لقد جئت إلى هنا لأتحرّى عن الظروف التي ماتت فيها تلك الفتاة المسكينة آمي جيبز.

فقالت الآنسة وينفليت: هل تعني بذلك أن الشرطة قد أرسلتك؟

- لا، أنا لست مخبراً سرياً.

- فهمت، إذن بريدجت كونواي هي التي استدعتك، أليس كذلك؟

فتردّد لوك لحظة ثم قرّر أن يتركها على ظنها هذا، فقد كان من الصعب عليه تفسير سبب وجوده هنا بدون الخوض في كل تفصيلات مقابلته مع الآنسة بينكرتون.

واصلت الآنسة وينفليت حديثها برقة وإعجاب قائلة: إن بريدجت عملية جداً، ولو تُرك الأمر إليّ لما عرفت ما أفعله. إن المرء إذا لم يكن متيقناً تماماً من الأمر فمن الصعب أن يقوم بأي عمل.

- لكنك متيقّنة، أليس كذلك؟

- نعم يا سيد فيتز ويليام؛ أنا لست واثقة لأنه أمر لا يمكن للمرء أن يكون واثقاً منه، أعني أن الأمر قد لا يتجاوز التخيّلات؛ فالمرء إذا عاش وحيداً لا يوجد مَن يتحدّث إليه ويستشيره فمن السهل أن يتصوّر أشياء لا أساس لها من الحقيقة.

وافق لوك على ذلك القول ولكنه أضاف قائلاً: ولكنك واثقة في قرارة نفسك؟

وهنا أظهرت الآنسة وينفليت بعض التمنّع فقال لوك: أنت تريدين منّي أن أتحدّث بصراحة. حسناً، هل تظنين أن آمي جيبز قد قُتلت؟

- أنا لم أشعر بالسعادة لموتها قطّ، وأرى أن الموضوع كله غير مُرضٍ إطلاقاً.

- ألا تظنين أن موتها كان طبيعياً؟

- نعم، لا أظن.

- هل كان نتيجة حادث؟

- أرى أن ذلك غير محتمَل إلى درجة بعيدة، فهناك كثير...

فقاطعها لوك قائلا: أنت لا تظنين أن الحادث كان انتحاراً؟

- نعم، لا أظن.

فقال لوك برقّة: إذن أنت تظنين أن الموت كان نتيجة جريمة قتل، أليس كذلك؟

فتردّدت الآنسة وينفليت قليلاً ثم قالت بشجاعة: بلى، أظن أنه كان نتيجة جريمة قتل.

- حسناً، والآن يمكننا أن نتقدّم.

- ولكنني لا أملك أي دليل أُقيم عليه اعتقادي هذا، والأمر كله لا يعدو مجرّد فكرة.

- حسناً، وهذه محادثة خاصة غير رسمية، فنحن نتحدث عمّا نظنه وعمّن نشتبه فيه فقط، ونحن نشتبه في أن آمي جيبز قد قُتلت، فمن الذي نظنه قد قتلها؟

فهزّت الآنسة وينفليت رأسها وكان يظهر عليها الارتباك، فقال لوك وهو يراقبها: مَن الذي لديه سبب يدعو إلى قتلها؟

فقالت الآنسة وينفليت ببطء: أظنها قد تشاجرت مع خطيبها جيم هارفي الذي يعمل في ورشة السيارات، وأنا أعرف أن المرء يقرأ في الصحف عن شبّان يهاجمون الفتيات اللاتي يحبونهن وما أشبه ذلك، ولكنني لا أظن أن جيم يفعل شيئاً كهذا.

فأومأ لوك برأسه في حين استمرّت تقول: فضلاً عن أنني لا يمكنني أن أصدّق أنه يرتكب ذلك الجُرم بتلك الطريقة، أي يتسلّق النافذة ويستبدل زجاجة طلاء القبعات بزجاجة شراب السعال... لا أظن.

وهنا سارع لوك إلى إكمال حديثها قائلا: ذلك العمل يرتكبه عاشق غاضب، وأنا أوافقك على ذلك وأرى أننا يمكننا استبعاد جيم هارفي؛ فقد قُتلت آمي بوساطة شخص أراد أن يزيحها عن الطريق فأعدّ خطّته بدقّة كي تظهر وكأنها مجرّد حادثة. والآن ألديك أية فكرة أو مجرّد شعور عمّن يكون ذلك الشخص؟

- لا، ليست لدي أدنى فكرة.

- هل أنت متأكدة؟

- أنا متأكدة.

ونظر لوك إليها وهو يفكر، فقد كان إنكارها لا يتميّز بالصدق، ثم قال: ألا تعرفين أي دافع قد يدعو إلى قتلها؟

- نعم، لا أعرف.

- هل عملَت في عدّة أماكن في ويتشوود؟

- لقد عملت لدى أسرة هورثون لمدة عام قبل أن تذهب إلى العمل عند اللورد هوايتفيلد.

- هل تسمحين لي بأن أجرّب تسلّق النافذة؟

- أظنها فكرة سديدة.

وقادته إلى الخارج عن طريق الباب الجانبي، ثم اتجهت به إلى الخلف حيث الحديقة، وتسلق لوك السطح دون أدنى مشقّة، ومن ذلك المكان تمكّن من أن يرفع زجاج نافذة الفتاة إلى أعلى بيسر وسهولة، ثم دفع بنفسه إلى داخل الغرفة، وبعد دقائق قليلة كان قد عاد إلى الاجتماع بالآنسة وينفليت وهو يمسح يديه بمنديله ويقول: الواقع أن الأمر أسهل ممّا يتصوّر المرء؛ فكل ما تدعو الحاجة إليه هو قليل من العضلات. بالمناسبة ألم توجد آثار من الخارج؟

فهزّت الآنسة وينفليت رأسها وقالت: لا أظن ذلك، فالشرطي تسلّق النافذة بهذه الطريقة.

- وحتى في حال وجود آثار في الأصل فسيظن أنه هو الذي تركها.

ومرّة أخرى عادت الآنسة وينفليت إلى مسكنها يتبعها لوك الذي سألها قائلاً: هل كانت آمي جيبز تنام نوماً عميقاً؟

فردّت الآنسة وينفليت ببرودة قائلة: كان من الصعب جداً إيقاظها في الصباح، وأحياناً كنت أكرّر القرع على بابها لمرات وأنادي قبل أن تردّ عليّ.

- حسناً، والآن نأتي إلى السؤال الخاص بالدافع وهو أكثر وضوحاً، هل تعتقدين بوجود شيء بين ذلك الشخص المدعو ألزورثي والفتاة؟ أنا أسألك فقط عن رأيك ولا شيء أكثر من

ذلك.

- إذا كان الأمر لا يعدو رأيي فأنا أقول نعم.

- هل تظنين أن الفتاة آمي كانت تبتز أمواله بالتهديد؟

- مرة أخرى أقول هذا أمر محتمَل جداً.

- هل تعرفين إذا ما كانت تملك قدراً كبيراً من المال وُجد في حوزتها عند موتها أم لا؟

وفكرت الآنسة وينفليت ثم قالت: لا أظن ذلك؛ فإذا كانت تملك قدراً غير عادي من المال فأظن أنني كنت سأعلم بذلك.

- إذن ذلك يعني استبعاد فكرة ابتزاز المال عن طريق التهديد، فالضحية تدفع قبل أن تقرّر الالتجاء إلى أقصى الطرُق للتخلّص من التهديد عادة، وتوجد نظرية أخرى وهي أن الفتاة ربما كانت تعرف شيئاً.

- أي شيء تعنيه؟

- ربما وصلت إلى معلومات خطيرة بالنسبة إلى شخص آخَر في ويتشوود، ولنفرض مجرّد فرض أنها قد عملت في منازل محترمة هنا وتوصّلت إلى معرفة شيء يسبب ضرراً للسيد آبوت من ناحية العمل مثلاً.

- السيد آبوت؟!

فأسرع لوك يقول: أو من المحتمل أن يكون ما وجدته شبه إهمال أو سلوك لا يتّفق وكرامة المهنة عند الدكتور توماس مثلاً.

فقالت الآنسة وينفليت: ولكن من المؤكّد...

ثم توقّفت، فاستمرّ لوك قائلاً: لقد قلت إن آمي جيبز عملت خادمةً في منزل هورثون في الوقت الذي تُوفيت فيه السيدة هورثون.

وساد صمت قطعته الآنسة وينفليت بقولها: سيد فيتز ويليام، هلاّ ذكرت لي السبب الذي جعلك تزجّ بهورثون في هذا الموضوع مع العلم بأن السيدة هورثون تُوفيت منذ أكثر من عام؟

- لا أعلم، أنا أتساءل فقط. ألم يكُن موتها غيرَ متوقَّع؟

فقالت ببطء: نعم، لم أكُن أتوقع موتها؛ فقد كانت في تحسّن مستمر يدلّ على أنها ستُشفى، وفجأة حدثت لها نكسة وماتت.

- هل دُهش الدكتور توماس؟

- لا أعرف، وإن كنت أعتقد أنه دُهش من ذلك.

- وماذا قالت الممرّضات؟

- بحسب تجارِبي أقرّر أن ممرّضات المستشفيات لا تُدهشهن رؤية المريض يسير إلى أسوأ، بل تقدّم صحته هو الذي يصيبهن بالدهشة.

- ولكن موتها أصابك بالدهشة، أليس كذلك؟

- بلى؛ فقد كنت معها قبل موتها بيوم واحد، وكان يبدو عليها أنها في حال أفضل بكثير مما كانت عليه، وكانت تتحدّث بمرح.

- وماذا كان رأيها في مرضها؟

- لقد كانت تشكو وتقول بأن الممرّضات يعملن على

وضع السمّ لها، حتى أنها تسبّبت في طرد ممرّضة، ومع ذلك فقد أخبرتني بأن الممرّضتين الأخيرتين مثل اللاتي طردتهن سواء بسواء.

- أظنك لم تعيري ذلك القول اهتماماً كبيراً، أليس كذلك؟

- لقد ظننت أن ما تقوله كان نتيجة مرضها، ولا سيما أنها امرأة كثيرة الشكوك وكانت تهوى أن تحيط نفسها بهالة من الأهمية. لم يعرف أي طبيب علّتها، وفي ظني إما أن يكون مرضها مجهول السبب أو أن شخصاً ما كان يحاول التخلّص منها.

وحاول لوك أن يجعل نبرات صوته عادية وهو يسأل قائلاً: ألم تشكّ في أن زوجها كان يحاول التخلّص منها؟

- هذه الفكرة لم تخطر على بالها قطّ.

وصمتت برهة ثم سألت بعدها قائلة: أهذا كل ما تفكر فيه؟

فقال لوك ببطء: لقد فعل أزواج كثيرون مثل ذلك من قبل ولم يفطِن إليهم أحد، ومما سمعته أن السيدة هورثون كانت سيدة يتمنّى أي رجل الخلاص منها، وقد عرفت أن زوجها ورث عنها مبلغاً كبيراً من المال بعد موتها.

- أجل، لقد حدث ذلك.

- فماذا تعتقدين أنت يا آنسة وينفليت؟

- أعتقد أن الميجور هورثون كان يحب زوجته كثيراً ولم يكُن يتصوّر عمل شيء مثل هذا قطّ.

- حسناً، أظنك على حق، ومن المحتمل أنك كنت تعرفين

أن الأمر بخلاف ذلك.

فابتسمت الآنسة وينفليت ثم قالت: هل تظننا لا نجيد الملاحظة نحن معشر النساء؟

- هل تظنين الآنسة بينكرتون كانت تتفق معك في الرأي؟

- لا أعتقد أن لافينيا أعطت رأياً على الإطلاق.

- ما رأيها في آمي جيبز؟

فقطبت الآنسة وينفليت حاجبيها وكأنها تفكر ثم قالت: من الصعب أن أقول شيئاً؛ فلافينيا كانت لديها فكرة غريبة...

- أية فكرة؟

- لقد ظنّت أن شيئاً غريباً سيحدث هنا في ويتشوود.

- هل اعتقدَت أن أحداً دفع تومي بيرز من النافذة مثلاً؟

فحدقت الآنسة وينفليت إليه بدهشة ثم قالت: وكيف عرفت ذلك يا سيد فيتز ويليام؟

- لقد قالت لي ذلك ولكن بتعبير ثانٍ، ولكنني استنتجت فكرة عامة من قولها.

فانحنت الآنسة وينفليت إلى الأمام وقد احمرّ وجهها من الاهتمام ثم قالت: متى حدث ذلك يا سيد فيتز ويليام؟

فقال لوك بهدوء: في اليوم الذي قُتلت فيه؛ فقد سافرنا معاً إلى لندن.

- ماذا قالت لك بالضبط؟

- قالت لي: لقد حدثت عدّة حوادث موت في ويتشوود. وذكرت اسم آمي جيبز وتومي بيرز وذلك الرجل كارتر، كما ذكرت أن الدكتور همبلبي سيموت بعد ذلك.

- هل ذكرت لك مَن المسؤول عن ذلك؟

فقال لوك بتجّهم: رجل ذو نظرة معيّنة في عينيه، نظرة لا يمكن للمرء أن يخطئها بحسب ما تقول! ثم ذكرت أنها شاهدت تلك النظرة في عينيه وهو يتحدّث إلى همبلبي، ولهذا أخبرتني بأن همبلبي هو الذي سيموت بعد ذلك.

فقالت الآنسة وينفليت بهمس: وقد كان!

ثم أسندت ظهرها إلى المقعد فسألها لوك قائلاً: مَن ذلك الرجل؟ قولي لي يا آنسة وينفليت، لا بدّ من أنك تعرفين.

- لا؛ فهي لم تقُل لي.

- ولكن يمكنك الاستنتاج، ولا بدّ من أن لديك فكرة عمّن كانت تتحدّث عنه.

وبتمنّع حنت الآنسة وينفليت رأسها، فقال لوك: أخبريني إذن.

ولكن الآنسة وينفليت هزّت رأسها بشدّة ثم قالت: لا، أنت تسألني أن أفعل شيئاً لا يتّفق مع الأخلاق، أنت تطلب منّي أن أتوقّع ما يُحتمَل أن يكون قد دار في ذهن صديقة لي هي الآن في عداد الموتى! لا، أنا لا يمكنني أن أُدلي باتهام من هذا القبيل.

- لن يكون ذلك اتهاماً بل مجرّد رأي.

- ليس أمامي شيء أُقيم عليه أي رأي، وفي الواقع أن لافينيا لم تذكر لي شيئاً قطّ، ويدور في خلدي الآن أنها كانت لديها فكرة معيّنة ولكنني قد أكون مخطئة في ظنّي، وبذلك أكون قد قُدتك إلى طريق خطأ ربما ترتبت عليه نتائج وخيمة.

ثم ضمّت شفتيها ونظرت إلى لوك نظرة فيها إصرار، وكان لوك يعرف كيف يتقبّل الهزيمة عندما يقابلها، لذا قام مودّعاً وهو يزمع إعادة الكرّة فيما بعد. ثم أخذ يقول: يجب عليك أن تفعلي ما تظنينه صواباً بطبيعة الحال، وأنا أشكرك على ما قدّمتِه لي من مساعدة.

فظهر على الآنسة وينفليت أنها أقلّ وثوقاً بنفسها عمّا كانت عليه من قبل لأنها قالت وهي تسير معه متّجهة إلى الباب: أرجو أن لا تظن...

ثم غيّرت ما كانت تريد قوله فقالت: إذا كان يوجد أي شيء آخَر يمكنني عمله لمساعدتك فأرجو أن تخبرني.

- سأفعل، وأرجو أن لا تذكري لأحد ما تحدّثنا عنه.

- بالطبع لن أذكر كلمة واحدة لأي مخلوق، وأرجو أن تبلغ بريدجت حبي. إنها فتاة ذكية وأنيقة وأرجو أن تكون سعيدة.

وعندما رأت نظرة تساؤل في عينَي لوك أضافت قائلة: أعني بعد زواجها باللورد هوايتفيلد مع فارق السن الكبير الذي بينهما.

- نعم.

ثم تنهدت الآنسة وينفليت وقالت فجأة: هل تعرف أنني كنت مخطوبة له يوماً؟

فحدق لوك إليها بدهشة، فأومأت برأسها وهي تبتسم بحزن قائلة: كان ذلك منذ وقت طويل، وقتها كان صبياً يبشر بتحقيق الآمال المعقودة عليه، وقد عاونته على تثقيف نفسه كما تعلم وكنت في غاية الفخر بروحه العالية وطريقة إصراره على النجاح في الحياة.

ثم تنهدت مرّة أخرى واستطردت قائلة: وبالطبع شعر أهلي بالخزي لأن التفرقة بين الطبقات في ذلك الوقت كانت شديدة جداً.

وصمتت بُرهة ثم قالت: لقد تتبّعت حياته العملية باهتمام شديد، وأظن أن عائلتي كانت مخطئة.

ثم حنت رأسها وهي تبتسم وألقت إليه بتحيّة الوداع ودخلت إلى منزلها. وحاول لوك أن يجمع شتات أفكاره؛ لقد كان ينظر إلى سيدة بلغت الستين عاماً، ولا بدّ أن اللورد هوايتفيلد تعدّى الخمسين من العمر، وقد تكون هي أكبر منه بعام أو عامين ولا أكثر من ذلك، ثم ها هو سيتزوج بريدجت، بريدجت ذات الثمانية والعشرين ربيعاً، بريدجت الشابة المليئة بالحياة، فثار لوك على نفسه وقال: تباً! يحسُن بي أن لا أفكر في ذلك؛ فأمامي عمل عليّ الانتهاء منه.

* * *

الفصل الرابع عشر

لم يشعر لوك بالارتياح إلى السيدة تشيرسن عمّة آمي جيبز، ولذلك عاملها بجفاء، وكانت تلك المعاملة ذات نتيجة حسنة بالنسبة إلى الغرض الذي ينشده. قال لوك: ليس عليك إلا أن تجيبي على أسئلتي بصراحة، فإذا أخفيت عنّي شيئاً يعطّل سير العدالة فالعواقب ستكون وخيمة بالنسبة إليك.

- نعم يا سيدي، وأنا مستعدّة كي أُجيب على كل ما تريد.

- أريد أن أعرف كل ما يتعلّق بابنة أخيك: مَن أصدقاؤها؟ وماذا كانت تملك؟ وكل شيء قالته قد يُلقي ضوءاً على موتها... والآن لنبدأ بأصدقائها، مَن هم؟

- جيم هارفي الذي يعمل في ورشة السيارات، وهو شاب رزين لا يوجد أفضل منه، وقد قلت لها...

فقاطعتها لوك قائلاً: ومَن الآخرون؟

- أعتقد أنك تفكّر في ذلك السيد الذي يملك محلّ العاديّات. أنا لم أكُن راضية عن ذلك، وقد كنت سيدة محترمة دائماً لا أرضى بمثل تلك الأشياء، ولكن فتيات اليوم لا ينصتن إلى النصيحة ويفعلن ما شئن، وفي العادة يندمن على أفعالهن أخيراً.

فسألها لوك بصراحة قائلاً: هل ندمت آمي على ما فعلته؟

- لا يا سيدي، لا أظن ذلك.

- لقد ذهبت في يوم موتها كي تستشير الدكتور توماس، ألم يكُن ذلك هو السبب؟

- نعم يا سيدي، أكاد أكون واثقة من أن ذلك لم يكُن السبب، وأقسم على ذلك. لقد كانت آمي معتلّة الصحة ولكن ما كانت تعاني منه هو مجرّد سعال وبرد، ولم تكُن تعاني مما تظن، أنا واثقة من ذلك يا سيدي.

- سأصدّقك، ولكن كيف سارت الأمور بينها وبين ألزورثي؟

- لا يمكنني أن أحدّد ذلك بالضبط يا سيدي لأنها لم تكُن تدلي إليّ بأسرارها.

فقال لوك: ولكنك تظنين أن الأمور تطوّرت بينهما تطوراً خطيراً، أليس كذلك؟

- ذلك السيد لا يتمتّع بسُمعة طيبة وله من الأصدقاء مَن يتميّز بالغرابة؛ فهم يحضرون إلى هنا وتحدث أشياء غريبة في ساحة الساحرات في منتصف الليل.

- هل كانت آمي تذهب إلى هناك؟

- أعتقد أنها ذهبت مرّة واحدة يا سيدي ومكثت طوال الليل هناك، وقد عرف ذلك اللورد هوايتفيلد وكانت في خدمته حينها، فغضب منها بشدّة، ثم ردّت عليه كلامه فكانت النتيجة أنه طردها من الخدمة، وهذا ما كان متوقّعاً.

- هل ذكرت لك شيئاً عمّا كان يحدث في تلك الأماكن التي كانت تذهب إليها؟

فهزّت السيدة تشيرسن رأسها وقالت: لم تقُل شيئاً ذا أهمية يا سيدي، كانت تهتمّ بما تفعله فقط.

- ألم تمكث في خدمة السيد والسيدة هورثون لبعض الوقت؟

- بلى، مكثت ما يقرب من عام يا سيدي.

- لماذا تركت الخدمة هناك؟

- بسبب اختيار الأفضل، فقد كان يوجد مكان خال في آسن مانور، وبالطبع كان الأجر أعلى.

فأومأ لوك برأسه مؤمّناً وقال: أظنها كانت في خدمة آل هورثون عندما تُوفيت السيدة هورثون، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي، وأذكر أنها كانت تتبرّم في ذلك الوقت من زيادة أعبائها نظراً لوجود ممرّضتين في المنزل وازدياد الواجبات المقرّرة عليها.

- أعتقد أنها لم تكُن في خدمة المحامي السيد آبوت على الإطلاق.

- أجل يا سيدي؛ فالسيد آبوت يقوم بخدمته رجل وزوجته، وكل ما في الأمر أن آمي ذهبت إليه مرّة واحدة في مكتبه، ولكنني لا أعرف السبب.

- هل يوجد رجال آخرون في القرية كانوا أصدقاء لها؟

- لا أعتقد.

- أريد الحقيقة يا سيدة تشيرسن، فحاولي أن تتذكّري.

- لم يكن رجلاً محترماً يا سيدي، وكانت تحقر نفسها من أجله، وقد قلت لها ذلك.

- هلاّ أوضحت قولك يا سيدة تشيرسن؟

- أعتقد أنك سمعت عن مطعم النجوم السبعة يا سيدي، وهو مكان غير محترم وصاحبه المدعو هاري كارتر كان شخصاً حقيراً.

- هل كانت آمي صديقة له؟

- لقد خرجت معه مرّة أو مرتين ولا أظن الأمر تعدى ذلك. حقاً لا أظن ذلك يا سيدي.

فأومأ لوك برأسه ثم قام بتغيير دفّة الحديث فقال: هل تعرفين صبياً صغيراً اسمه تومي بيرز؟

- مَن؟ ابن السيدة بيرز؟ طبعاً أعرفه. لقد كان سبباً في متاعب جمة.

- هل كان يقابل آمي كثيراً؟

- لا يا سيدي، لقد كانت آمي تعامله بجفاء إذا حاول مضايقتها بألاعيبه.

- هل كانت سعيدة في عملها عند الآنسة وينفليت؟

- لقد كانت تظن أن عملها هناك يتّصف بالملل، كما أن

الأجر لم يكُن مجزياً، ولكن ليس من السهل الحصول على عمل بعد أن طُردت من عملها في آسن مانور.

- أعتقد أنه كان يمكنها الرحيل؟

- هل تعني إلى لندن يا سيدي؟

- نعم، أو إلى أي مكان آخَر.

فهزّت السيدة تشيرسن رأسها وقالت ببطء: لم تكُن آمي ترغب في الرحيل عن ويتشوود والأحوال على ما هي عليه.

- ماذا تعنين بقولك "والأحوال على ما هي عليه"؟

- أعني بالنسبة إلى جيم وصاحب محل العاديّات.

فأومأ لوك برأسه، فقالت السيد تشيرسن: الآنسة وينفليت سيدة لطيفة جداً، ولكنها تهتم كثيراً بجلاء النحاس والفضيات وإزالة الغبار وما شابه ذلك من الأعمال، ولا أظن أن آمي كانت تتحمّل كل ذلك لو لم يوجد أي شيء آخَر تتعزّى به.

فقال لوك بجفاء: يمكنني أن أتصوّر ذلك.

وفكّر ملياً فلم يجِد شيئاً آخَر يمكنه أن يسألها عنه، وكان متأكّداً من أنه قد استخلص كل معلومات السيدة تشيرسن ولكنه فضّل أن يحاول محاولة أخيرة فقال: أظنك تريدين الوقوف على ما وراء كل تلك الأسئلة، فالظروف التي ماتت فيها آمي غريبة نوعاً ما ونحن غير مطمئنين إلى أن الأمر كان مجرّد حادثة، فإذا لم يكُن الأمر كذلك فلا بدّ من أن تعرفي ماذا كان عليه الوضع.

- هل تعني عملاً إجرامياً؟

- نعم. والآن، لنفرض أن ابنة أخيك كانت ضحية عمل إجرامي، فمن الذي تظنينه مسؤولاً عن موتها؟

فمسحت السيدة تشيرسن يديها في صِدارها ثم قالت متسائلة: أظن أنه لا بدّ من أن توجد جائزة لإرشاد الشرطة إلى الطريق الصحيح؟

فقال لوك: قد يكون الأمر كذلك.

فبلّلت السيدة تشيرسن شفتيها بلسانها ثم قالت: لا يمكنني أن أجزم بشيء، ولكنني أقول إن صاحب محلّ العاديّات رجل غريب في تصرّفاته.

- أهذا ما تظنين؟

- أعتقد أن الأمر قد يكون كذلك يا سيدي.

فوافق لوك على ما قالته ثم قال: هل كان ألزورثي بعيداً عن هنا في مساء يوم سباق الدربي؟ هذه هي النقطة المهمّة.

فحدقت إليه السيدة تشيرسن ثم سألته قائلة: في يوم سباق الدربي؟

- نعم، في يوم الأربعاء قبل أسبوعين.

فهزّت السيدة تشيرسن رأسها ثم قالت: حقاً أنا أعلم، فهو ليس هنا في أيام الأربعاء عادةً لأنه يذهب إلى المدينة بعد أن يغلق محلّه مبكراً.

فقال لوك: إذن فهو يغلق محلّه مبكراً في أيام الأربعاء؟

وبعد قليل ترك السيدة تشيرسن وهو يشعر بكراهية لها،

ومع ذلك فقد كان مقتنعاً بأن حديثه معها أفاده في كثير من النقاط وأوحى إليه بعدّة أشياء راح يفكّر فيها، ثم خلص إلى أن الشبهات تتركّز في أربعة أفراد هم توماس وآبوت وهورثون وألزورثي، وقد زاد من يقينه أن تصرّف الآنسة وينفليت يؤكّد ما وصل إليه؛ مثل عدم رغبتها في ذكر أي اسم. لا بدّ من أن ذلك يعني أن الشخص المسؤول رجل له مكانته في ويتشوود، رجل يسيء إليه أي تلميح، وذلك يتفق مع عزم الآنسة بينكرتون على أن تُفضي بشكوكها إلى الشرطة في اسكتلنديارد لأنها لو أفضت بها إلى رجال الشرطة المحليين لكانت محلّ سخرية. لا بدّ أن الأمر لم يكُن يتعلّق بشخص يُعتبَر اتهامه بجريمة قتل أمراً خيالياً بل أمراً خطيراً، ولم يكُن يوجد سوى أربعة أشخاص ينطبق عليهم هذا الوصف، وكان الأمر يتوقّف عليه لبحث حال كل منهم على حدة ليقرّر أيهم الذي تحوم حوله الشبهات.

فإذا عدنا إلى الآنسة وينفليت وجدناها امرأة ذات ضمير تثق في معرفتها بالشخص الذي اشتبهت فيه الآنسة بينكرتون، ولكنها ذكرت أنها لا تؤكّد ذلك من جانبها، ومن المحتمل أن تكون مخطئة في ظنها، فمَن ذلك الذي تفكّر فيه الآنسة وينفليت يا تُرى؟! لقد كانت تشعر بالاضطراب خوفاً من أن يؤدّي اتهامها إلى الإيقاع ببريء، فلا بدّ من أن يكون الشخص الذي تفكّر فيه له مكانته ومحبوباً من الأغلبية ومحترماً من الجميع.

وبناءً على هذا الأساس فألزورثي يكون مستبعداً لأنه غريب عن ويتشوود وسُمعته المحلية كانت سيئة. ولم يغِب عن خلد لوك أنه لو كان ألزورثي هو الشخص الذي تظنه الآنسة وينفليت لما امتنعت عن ذكر اسمه، لذلك فعليه أن يستبعده من قائمة المشتبه

بهم. ثم عاد إلى الآخرين فشعر بأنه يمكنه استبعاد الميجور هورثون أيضاً؛ فقد نفت الآنسة وينفليت بشدة فكرة أن الميجور هورثون وضع لزوجته سُماً، ولو كانت قد اشتبهت في ارتكابه جرائم بعد ذلك لما أصرّت على تبرئته من دم زوجته.

كل ذلك يترك لنا اثنين من المشتبه فيهم هما الدكتور توماس والسيد آبوت، وكل منهما تنطبق عليه الافتراضات؛ فقد كان كل منهما ذا مركز مرموق ومحبوباً وذا شعبية. ثم عاد لوك يسأل نفسه عمّا إذا كان يستطيع هو نفسه استبعاد كل من ألزورثي وهورثون، وفي الحال هزّ رأسه نفياً؛ فلم يكُن الأمر بسيطاً إلى ذلك الحدّ لأن الآنسة بينكرتون كانت تعرف المجرم، وقد تأكّد ذلك بموتها ثم بموت الدكتور همبلبي، ولكن الآنسة بينكرتون لم تصرّح باسم أي شخص للآنسة وينفليت، وعلى ذلك فكل ما تعرفه الآنسة وينفليت هو مجرّد ظن، وفي أغلب الأحيان يكون الظن مخطئاً، وعلى ذلك فالمشتبَهون الأربعة ما زالوا كما كانوا، فقال لوك في نفسه: لنبحث الأمر على هذا النحو، لنشتبه في كل فرد على حدة؛ فمثلاً ألزورثي لنفرض أنه القاتل ولنحاول بحث حال كل من الضحايا بطريقة مرتّبة. السيدة هورثون من الصعب معرفة الدافع إلى قتلها، ولا توجد الوسيلة، ولكن الميجور هورثون ذكر شيئاً قام ألزورثي بتحضيره لها وقد تناولته فعلاً، وفي تلك الحال يمكن القول بسمّها بشيء مثل الزرنيخ، ولكنْ يبقى عندنا السؤال: لماذا؟

والآن لننتقل إلى الآخرين: آمي جيبز: لماذا يقتل ألزورثي آمي جيبز؟ السبب الواضح هو أنها كانت مصدر متاعب له، وقد يكون الدافع أنها كانت تهدّده لإخلاف وعده أو أنها اطّلعت على بعض أسراره ثم هدّدته بإفشائه؟ هل هدّدته بإخطار اللورد هوايتفيلد وهو

معروف بأنه ذو نفوذ كبير في ويتشوود، وبحسب قول بريدجت فإنه رجل ذو مُثُل عليا. ماذا لو كان قد عرف أن ألزورثي يرتكب أشياء منافية للعرف والأخلاق عن طريقها؟ إذن لا بدّ من التخلّص من آمي.

مَن لدينا بعد ذلك؟ كارتر؟ من غير المعقول أن يعلم بالحفلات الشاذة التي تحدث في منتصف الليل، أم أن ابنته الجميلة كانت تشترك فيها؟ ربما كان الأمر لا يتعدّى الوقاحة مع ألزورثي فغضب الأخير من ذلك، وإذا كان قد ارتكب جريمة أو جريمتين وقتئذٍ فالغرور سيستبدّ به ويدفعه إلى ارتكاب جريمة ثالثة. والآن لننتقل إلى تومي بيرز، فلماذا يقتله ألزورثي؟ لسبب بسيط، وهو أن تومي قد اشترك في إحدى تلك الحفلات الشاذة ولا بدّ من أنه هدده بالتحدّث عنها، بل من الممكن أن يكون قد تحدّث عنها فعلاً، إذن الحل يكون في غلق فم تومي إلى الأبد.

ثم أخذ نفساً عميقاً و استطرد في تفكيره قائلاً في نفسه: وماذا عن الدكتور همبلبي؟ لماذا يقتله ألزورثي؟ الجواب بسيط، وهو أن الدكتور همبلبي طبيب ولا بدّ أنه لاحظ أن حالة ألزورثي العقلية ليست على ما يُرام، ومن المحتمل أنه كان في سبيله إلى اتخاذ إجراء في هذا الصدد، لذا اقتضى الأمر التخلّص منه، ولكن وجه الصعوبة يكمن في الطريقة التي استُخدمت لذلك، فكيف تمكّن ألزورثي من التأكّد من موت همبلبي عن طريق التسمم الدموي؟ أم هل كان تسمّمه قد حدث بطريقة عرضية؟ وأخيراً، ماذا عن الآنسة بينكرتون؟ ففي يوم الأربعاء جرت عادته أن يغلق محلّه مبكراً وربما ذهب إلى لندن في ذلك اليوم، فهل يملك ألزورثي سيارة؟ أنا لم أرَه في سيارة ولكن هذا لا يعني شيئاً؛ فقد كان

يعلم أنها تشتبه فيه وأنها ذاهبة إلى اسكتلنديارد للإدلاء بشكوكها، وربما كان عندهم علم به من قبل. هذه هي قائمة الاتهامات ضد ألزورثي، فأي شيء إذن في صالحه؟ الشيء الأول: من الواضح أنه ليس بالشخص الذي تظن الآنسة وينفليت أن الآنسة بينكرتون كانت تشكّ فيه، والسبب الآخَر هو أنه ليس بالشخص الذي أظنه قد ارتكب تلك الجرائم؛ فقد شعرت من حديث الآنسة بينكرتون بأنها تعني شخصاً غير غريب الأطوار، شخصاً عادياً لا يثير اشتباه أحد فيه، وألزورثي من النوع الذي يثير الاشتباه.

مرّر لوك راحته على جبهته ثم تابع تفكيره قائلاً لنفسه: والآن لننتقل إلى توماس. لقد رفعت اسمه من قائمة المشتبه بهم بعد أن تحدّثت معه لأنه شخص غير عادي، ولكن الموضوع كله يتلخّص في أن المجرم شخص عادي يُعَدّ من أبعد الناس عن الشبهات، وهو ما ينطبق بطبيعة الحال على توماس. والآن ماذا عن آبوت؟ هو الآخَر يصلح أن يكون هو المجرم؛ فهو شخص عادي يتمتّع بسُمعة حسنة، وقد زارته آمي جيبز مرّة، فلماذا؟ هل طلبت منه استشارة قانونية؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا؟ أم هل زارته لأمر شخصي؟ كما يوجد موضوع خطاب خاص من سيدة وهو ما رآه تومي. هل كان ذلك الخطاب من آمي جيبز أم كان خطاباً كتبته السيدة هورثون؟ خطاب حصلت عليه آمي جيبز بطريقة ما في أثناء خدمتها في منزل آل هورثون. أية سيدة تلك التي تكتب خطاباً خاصاً إلى آبوت يدفعه إلى فقدان التحكم في أعصابه عندما يعرف أن تومي رآه؟

وماذا عن تومي بيرز؟ السبب في قتله واضح وهو رؤيته الخطاب، أما كارتر فيوجد موضوع ابنته، وربما يكون آبوت قد

أراد أن يجنّبه فضيحة خوفاً من تهديد كارتر إياه فقتله، ثم شجاره مع همبلبي وجرأة الأخير على أن يعارضه. ثم مَن لدينا بعد ذلك؟ لافينيا بينكرتون والنظرة التي شاهدها في عينيها وعلمه بأنها عرفت أمره ولكنها لا تملك الدليل، ولكن لنفرض أنها بدأت في البحث عن الأدلة، ثم ماذا إذا ذهبت بشكوكها إلى اسكتلنديارد؟ ربما كانوا سيصدّقونها إذا فعلت ذلك وبدؤوا في تحرّياتهم، إذن لا بدّ من اتخاذ إجراء حاسم. أيملك السيد آبوت سيارة أم استأجر واحدة عقب وصوله إلى لندن؟ على أية حال لقد كان غائباً عن القرية في يوم سباق الدربي.

وغرق لوك في أفكاره وتأمّلاته، ثم خلص إلى أن الأمر لا يعدو أن يكون القاتل أحد اثنين إما أن يكون آبوت أو توماس، ويجب أن يتأكّد ممن تشكّ فيه الآنسة وينفليت، ولكن كيف يمكنه عمل ذلك؟ هل يذهب إليها فيسألها بصراحة عن أيهما القاتل في رأيها؟ ربما تمكّن من الحصول على إجابة بهذه الطريقة، ولكن قد تكون مخطئة في ظنّها، كما أنه لا يوجد دليل يثبت أنها على حق في ظنها. لقد أثبتت الآنسة بينكرتون أنها كانت مصيبة في شكوكها. دليل آخَر هذا هو كل ما ينشده.

ثم أفاق من تأمّلاته فجأة وتمتم قائلاً: يا للعجب؛ أنا أطلب حدوث جريمة قتل أخرى!

* * *

الفصل الخامس عشر

جلس لوك يتناول طعامه في مطعم النجوم السبعة وهو يشعر بنظرات الحاضرين تحصي عليه حركاته، ثم شعر بأنه مصيب في ظنه بأن الفتاة الجميلة التي تقف في المطعم ليست إلا الآنسة لوسي كارتر التي كانت تبادل روّاد المطعم الحديث دون تكلّف بطريقة آلية. وشعر لوك بأنه لا فائدة تعود عليه من البقاء في المطعم فخرج وسار إلى أن وصل إلى الممرّ المؤدّي إلى الجسر المقام على النهر، وراح يتفحّصه إلى أن أفاق على صوت مرتعش من خلفه يقول: هنا وقع هاري العجوز في النهر يا سيدي.

فاستدار لوك ليرى واحداً من رواد المطعم الذين رآهم منذ لحظات، واستمرّ الرجل في حديثه قائلاً: هنا وقع هاري على قمّة رأسه فغاص في الوحل يا سيدي.

فقال لوك: من الغريب أن يقع هنا!

فردّ الرجل: لقد كان ثملاً.

فقال لوك: هل كانت تلك أول ليلة يمرّ فيها من هنا وهو ثمل؟

فقال الرجل: بل كان يمرّ من هنا في كل ليلة.

فقال لوك: من الجائز أن يكون أحدهم قد دفعه.

فوافق الرجل قائلاً: قد يكون ذلك ما حدث، ولكنني لا أعرف مَن يفعل ذلك.

- قد يكون له أعداء؛ فقد كان سليط اللسان.

- لقد كان هاري بذيئاً في أقواله، ولكنني لا أظن أن أحداً يدفع هاري وهو ثمل.

ولم يحاول لوك مناقشة ذلك القول بل قال: حسناً، لقد كان الأمر كله محزناً.

- لم يكُن الأمر كذلك بالنسبة إلى زوجته وابنته لوسي.

- من الجائز أن موته قد سرّ أُناساً أخرين.

- ربما كان الأمر كذلك، ولكن هاري لم يكُن يرغب في أن يسبب الضرر لأحد.

وعلى ذلك افترق الرجلان، فسار لوك متجهاً إلى المكتبة التي كانت أعمالها مع المتردّدين عليها تُنجَز في الغرفتين الأماميتين، ولكن لوك اتجه إلى الجزء الخلفي عن طريق باب كُتب عليه اسم المتحف، وهناك راح يتنقّل وهو ينظر إلى المعروضات التي كانت لا تزيد عن كونها بعض أوان فخارية من العهد الروماني وعملات نقدية وتحف أُحضرت من البحار الجنوبية وبعض التماثيل لآلهة الهند وُضعت عليها بطاقات تدلّ على أنها قُدّمت هدية من الميجور هورثون.

وبعد مدة عاد لوك إلى الردهة الأصلية، وهناك لم يجد أحداً فيها فأسرع مرتقياً الدرَج المؤدّي إلى الطابق العلوي، وهناك

وجد غرفة مليئة بأوراق ومجلات وغرفة أخرى مليئة بالكتب، ثم عاد لوك فارتقى الدرَج ليصعد إلى الطابق الأعلى ليجد نفسه في غرف مليئة بالمهملات مثل طيور محنطة أصابها التلف ومجلات ممزّقة، فاقترب لوك من النافذة وشعر بأنه لا بدّ من أن تكون تلك هي النافذة التي جلس على حافتها تومي بيرز، ومن المحتمل أن يكون قد أطلق صفيراً من فمه وهو يقوم بتنظيف زجاجها بين آونة وأخرى عندما سمع شخصاً ما يقترب منه، ولا بدّ أنه بدأ بتنظيف النافذة بهمّة ثم اقترب منه ذلك الشخص ليتحدّث إليه ثم دفعه فجأة بشدّة.

استدار لوك ونزل على الدرَج إلى الأسفل، ثم وقف في وسط البهو الأساسي لمدّة دقيقة أو دقيقتين وهو يفكّر كيف أن أحداً لم يشاهده وهو يدخل أو وهو يرتقي الدرَج إلى الطوابق العلوية، فعلم أن بإمكان أي شخص أن يفعل مثلما فعل. ثم سمع وقع خطى تقترب ناحيته متّجهة نحو المكتبة، ودخلت الآنسة وينفليت وقد حملت بين ذراعيها مجموعة من الكتب وقد بدا عليها أنها سعيدة باندماجها في عملها، وعندما وقع بصرها عليه أضاءت وجهَها ابتسامةٌ وهتفت قائلة: آه، سيد فيتز ويليام؟ هل كنت تلقي نظرة على المتحف؟ يؤسفني أنه لا توجد فيه تحف كثيرة، ولكن اللورد هوايتفيلد وعدنا بإحضار بعض المعروضات المثيرة للاهتمام.

- حقاً؟

- نعم، معروضات حديثة مثل تلك التي في متحف العلوم الكائن في لندن، وقد اقترح إحضار نماذج لطائرات وسكك حديدية ومواد كيماوية أيضاً.

- ربما أضفت مثل تلك النماذج بهجة على المتحف.

- أجل، فأنا لا أعتقد أنه من الواجب أن يكون المتحف قاصراً على معروضات تتعلّق بالماضي فقط، فما رأيك أنت؟

- ربما كان الأمر كذلك.

- أعتقد أنه قد يكون من الواجب عرض بعض الأشياء المتعلّقة بمواد الغذاء.

فأدار لوك دفّة الحديث قائلاً: لقد نظرت إلى معروضات المتحف، وبعد ذلك توجّهت إلى الطابق العلوي لألقي نظرة على النوافذ هناك.

فارتعشت الآنسة وينفليت وقالت: هل تعني حيث كان تومي؟ الواقع لقد كان الأمر رهيباً جداً.

- أجل، ولقد قضيت مدّة من الوقت مع السيدة تشيرسن عمّة آمي وأرى أنها ليست امرأة ظريفة.

- أجل، ليست ظريفة مطلقاً.

- حتى إنني اضطُررت إلى اتخاذ موقف جاف معها، ولا بدّ أنها ظنت أنني من كبار رجال الشرطة.

ثم توقف عن الحديث لأنه شاهد تغيّراً مفاجئاً على وجه الآنسة وينفليت التي قالت: آه يا سيد فيتز ويليام، هل تظن أن ما فعلتَه كان صائباً؟

قال لوك: لا أعلم، ولكن لم يكُن من ذلك بُد؛ فقصّة تأليف كتاب لم تعُد تقنع أحداً ولم يكُن في مقدوري الاستمرار فيها،

وكان عليّ أن أقوم بتوجيه الأسئلة بصراحة وبلا حيل.

فهزّت الآنسة وينفليت رأسها بشكّ وعلاماتُ الاضطراب ما زالت ظاهرة على وجهها ثم قالت: أنت تعلم أن الأنباء تنتقل بسرعة في مثل هذا المكان.

- أتعنين بذلك أن كل فرد هنا سيشير إليّ ويقول "ها هو الشرطي" كلما سرت في الشارع؟ لا أظن أن ذلك يهمّ الآن. الواقع أنني قد أعرف أشياء أكثر بهذه الطريقة.

- أنا لا أعني ذلك، بل ما أعنيه هو أنه سيعرف وسيدرك أنك في طريقك نحو اقتفاء أثره.

فقال لوك ببطء: أظنه سيفعل ذلك.

- ولكن ألا تدرك أن ذلك أمر خطير ورهيب؟

وهنا شعر لوك بأنه قد عرف أخيراً ما تعنيه فقال: هل تعنين أن القاتل سيحاول التخلص منّي؟

- نعم.

- هذا غريب! أنا لم أفكر في ذلك قطّ، ولكنني أعتقد أنك مصيبة في ظنك.

- حسناً، ربما يكون ذلك أفضل شيء يمكن حدوثه.

وصمتت الآنسة وينفليت برُهة ثم استطردت قائلة بحرارة: أظن أنك تدرك أنه رجل ذكي وحذر جداً، كما تعلم أنه ذو خبرة كبيرة وربما أكثر مما نعرف.

فقال لوك وهو يفكر: أجل، يُحتمَل أن يكون الأمر كذلك.

فهتفت الآنسة وينفليت قائلة: أنا غير راضية عن ذلك وأشعر بخوف كبير.

فقال لوك برقّة: لا داعي للقلق لأنني سأكون حريصاً. لقد حصرت شكوكي في أقل عدد ممكن، وعلى أية حال فلدي فكرة عمّن يحتمل أن يكون هو القاتل.

وهنا رفعت بصرها إليه بسرعة وحدّة، فاقترب لوك منها خطوة وخفض من صوته وهو يهمس إليها قائلاً: آنسة وينفليت، إذا قمت بسؤالك عمّن تظنينه أكثر احتمالاً في أن يكون هو القاتل من بين اثنين، هما الدكتور توماس والسيد آبوت، فماذا يكون جوابك؟

- آه!

قالتها الآنسة وينفليت في حين ارتفعت يدها بسرعة نحو صدرها، ثم ارتدّت إلى الوراء وتقابلت عيناها مع عينَي لوك بنظرة غريبة لم يدرك هو كنهها، نظرة شعر بأنها تحمل صبراً نافداً أو شيئاً آخَر يماثله لم يعرف ما هو ثم قالت: لا يمكنني أن أقول شيئاً.

ثم استدارت فجأة وقد خرج من حلقها صوت غريب كأنه مزيج من التنهد والبكاء، عندئذ شعر لوك بأنه لا مفرّ من قبول الأمر الواقع فسألها قائلاً: أذاهبة أنت إلى المنزل؟

- لا، كنت سأحمل هذه الكتب إلى السيدة همبلبي التي يقع منزلها في طريقك نحو آسن مانور، يمكننا أن نسير معاً لمسافة من الطريق.

فقال لوك: هذا أمر يسرّني.

ثم نزلا الدرَج معاً واستدارا إلى اليسار، والتفت لوك خلفه لينظر إلى المبنى الذي غادراه ثم قال: لا بدّ أنه كان منزلاً جميلاً في أيام والدك.

فتنهدت الآنسة وينفليت وقالت: أجل، لقد كنا جميعاً سعداء جداً هنا، وأنا أشعر بالامتنان لأنه لم يُهدَم مثل غيره من المنازل القديمة ولا سيما أن المنازل الحديثة ليست جيدة البناء مثل المنازل القديمة.

- حقاً، وأظنها لا تصمد أمام الزمن مثلها أيضاً.

فقالت الآنسة وينفليت: ولكن المنازل الحديثة تلائم الحياة المريحة وتخفّف من أعباء العمل فيها؛ إذ ليس فيها غُرف كبيرة تتطلّب جهداً كبيراً في تنظيفها.

فوافقها لوك على ذلك. وعندما وصلا إلى منزل الدكتور همبلبي تردّدت الآنسة وينفليت بُرهة ثم قالت: يا لها من أمسية جميلة! أظن أنني سأسير معك لمسافة ما إذا لم يكُن لديك مانع؛ فقد شعرت بالمتعة في استنشاق هذا الهواء الطلق الجميل.

فشعر لوك بدهشة، ومع ذلك فقد أظهر سروره من ذلك بأدب لأن الأمسية لم تكُن من ذلك النوع الذي تُطلَق عليه صفة الجمال؛ فقد كانت توجد ريح قوية حتى إنه لم يستبعد أن تهب عاصفة في أي وقت.

وعلى ذلك سارت الآنسة وينفليت مجاورة له وقد أمسكت قبعتها بإحدى يديها في الطريق المنعزل المؤدّي إلى بوابة آسن مانور، وعندما اقتربا منها سمعا أصواتاً صاخبة تصل إلى آذانهم، ولم تكد تنقضي لحظة حتى كانا على مرأى من اللورد هوايتفيلد

وهو يؤنّب شاباً في ثياب سائق سيارة، وسمعا اللورد هوايتفيلد يقول بصوت عال: أنت مفصول، هل تسمعني؟ أنت مفصول.

- هلاّ سامحتني يا سيدي اللورد هذه المرّة فقط.

- لا، لن أسامحك، تأخذ سيارتي أنا وتقودها وأنت ثمل؟! نعم، لقد فعلت ذلك، ولا يمكنك الإنكار، وسبق أن أوضحت لك أنني لا أرضى بمثل هذه الأشياء في منزلي.

ومع أن الرجل لم يكُن ثملاً فعلاً إلا أنه كان لا يأبه بما يقول، وحين سمع السائق القول من اللورد تغيّرت لهجته وقال: لقد سئمت أوامرك، لا تسمح بهذا ولا تسمح بذلك وفي منزلك... هل تظننا لا نعرف أن والدك كان يملك محلاً للأحذية هنا؟ نحن نكاد نموت من الضحك عندما نراك تسير بخيلاء وكأنك أشبه بطاووس. أخبرني مَن أنت؟ هذا ما أودّ معرفته. يجب أن تعرف أنك لست خيراً منّي.

فاصطبغ وجه اللورد هوايتفيلد باللون الأحمر ثم صرخ قائلاً: كيف بلغت بك الجرأة لتتحدث معي هكذا؟ كيف تجرؤ؟!

فتقدّم الشاب نحو الأمام خطوة فيها معنى التهديد وقال: لو لم تكُن رجلاً ضعيفاً ذا بطن كبير، للكمتك في وجهك.

فتراجع اللورد هوايتفيلد إلى الوراء خطوة بسرعة فزلقت قدمه فوقع على الأرض، وفي تلك اللحظة ظهر لوك الذي وجّه حديثه إلى السائق بخشونة قائلاً له: اخرج من هنا.

- آسف يا سيدي، أنا متأكّد أنني لا أعرف ماذا أصابني.

ثم ساعد لوك اللورد هوايتفيلد على الوقوف على قدميه،

وهنا تمتم السائق قائلاً: أطلب منك المعذرة يا سيدي اللورد.

وكان صوته يختلج بالأسى، ثم غادر المكان ببطء في حين تبعه اللورد هوايتفيلد بقوله: ستأسف على ما فعلت يا ريفرز.

ثم استدر إلى ناحية لوك وقال: أن يتحدث إليّ مثل ذلك الرجل هكذا فهذه وقاحة زائدة، ولا بدّ أن يحدث شيء خطير له فهو لا يعرف معنى الاحترام ولا يقدّر مكانته في الحياة، وعندما أفكر فيما أقوم بعمله لهؤلاء القوم فأعطيهم أجوراً طيبة وراتباً عند تقاعدهم وكل وسائل الراحة ثم أقابَل بعدم العرفان بالجميل بعد كل ذلك...

واختنق صوته من فرط الانفعال، ثم وقع بصره على الآنسة وينفليت التي كانت تقف على مقربة فقال: أنت هنا يا هونوريا؟ يؤسفني كثيراً أن تكوني قد شاهدت ما حدث ولا سيما لهجة ذلك الرجل.

فقالت الآنسة وينفليت: لا أعتقد أن الرجل كان في حال طبيعية يا لورد هوايتفيلد.

- أجل، لم يكُن طبيعياً.

فقال لوك: الأمر لا يعدو كون الشاب سليط اللسان.

فقال اللورد هوايتفيلد وهو ينقل بصره بين الاثنين: هل تعرفان ماذا صنع؟ لقد أخذ سيارتي، سيارتي أنا، ظناً منه أنني لن أعود بسرعة، فقد أخذتني بريدجت في السيارة الصغيرة إلى بلدة لين فجأة... ذلك الشخص الوقح أخذ فتاة للتنزه بسيارتي، وأكبر أظن أنها كانت لوسي كارتر.

فقالت الآنسة وينفليت برقّة: هذا أمر غير لائق إطلاقاً.

ثم بدا اللورد هوايتفيلد وكأنه شعر ببعض الراحة فقال: أجل، أليس الأمر كذلك؟

- ولكنني متأكّدة من أنه سيأسف على ما فعل.

- سأبذل جهدي حتى يحدث له ما يعيده إلى صوابه.

فقالت الآنسة وينفليت: لقد قمت بفصله.

وهنا هزّ اللورد هوايتفيلد رأسه وقال: ستكون نهاية هذا الشخص مؤسفة.

ثم أضاف قائلاً: تعالي إلى المنزل يا هونوريا كي تتناولي كوباً من الشاي.

- أشكرك أيها اللورد، ولكن يجب عليّ أن أذهب بهذه الكتب إلى السيدة همبلبي. طاب مساؤك يا سيد فيتز ويليام.

ثم ابتسمت له وسارت في طريقها. وشعر لوك بأن الآنسة وينفليت قد رافقته وكأنها تريد حمايته، وقد كانت الفكرة غير معقولة في حد ذاتها، وهنا قطع تفكيره صوت اللورد هوايتفيلد القائل: هونوريا وينفليت امرأة قديرة جداً.

- أظن أن الأمر كذلك.

وبدأ اللورد هوايتفيلد في السير متّجهاً نحو المنزل، وفجأة قهقه ضاحكاً وقال: لقد كنت خطيباً لهونوريا منذ عدّة أعوام، وكانت فتاة جميلة الطلعة ولم تكُن نحيلة مثلما هي عليه الآن، كما كانت أسرتها من أعرق الأُسر؛ فقد كان والدها الكولونيل

وينفليت الآمر الناهي هنا، وقد ثارت ثائرته عندما أعلنت هونوريا أنها ستتزوجني وأخبرتهم بأنها فتاة متحرّرة تنادي بإلغاء الفوارق بين الطبقات.

- وهل قامت أسرتها بإلغاء تلك الخِطبة؟

- ليس الأمر كذلك، الواقع أننا تشاجرنا بسبب موضوع ما، حيث كان عندها أحد طيور الزينة وقد قصمت رقبته. دعنا من هذا الموضوع لأنه ليس من اللائق أن نذكر ذلك الآن.

ثم هزّ كتفيه وكأنه يزيح من على كاهله عبئاً وقال: لا تظنها قد سامحتني، وأظن ذلك أمراً طبيعياً.

فقال لوك: أعتقد أنها قد سامحتك.

فتلألأ وجه اللورد هوايتفيلد وقال: هل تظن ذلك؟ أنا سعيد جداً. أنت تعلم أنني أحترم هونوريا لأنها امرأة قديرة وسيدة محترمة، وتلك أشياء لها قدرها حتى في هذه الأيام، كما أنها تدير المكتبة إدارة قديرة.

ثم رفع رأسه وقد تغيّر صوته قائلاً: مرحى، ها هي بريدجت قادمة.

* * *

الفصل السادس عشر

شعر لوك بتوتر في عضلاته وهو يرى بريدجت تقترب، ولم يكُن قد دار بينهما حديث على انفراد منذ ذلك اليوم الذي لعبوا فيه لعبة التنس، وكان كلاهما قد ابتعد عن الآخَر، وكان ذلك على وفق خطة مرسومة. واختلس نظرة إليها فرآها هادئة، ثم سمعها تقول: عجباً! ماذا حدث لك يا جوردون؟

فقال اللورد هوايتفيلد: لقد بلغت الوقاحة بذلك الشخص المدعو ريفرز أن يأخذ سيارتي الرولز رويس مساء اليوم.

فقالت بريدجت: هذا يُعَدّ عيباً في حق الذات الملكية!

- ليس من الأمر الحسن أن تجعلي من هذا الموضوع مادة للضحك يا بريدجت؛ فالأمر أخطر من ذلك. لقد أخذ فتاة في السيارة.

- أظنه لم يكُن يشعر بالسرور لو كان قد ذهب بالسيارة وحده!

فرفع اللورد هوايتفيلد من قامته وقال: لا بدّ أن أحقق المُثُل العليا في منزلي.

- إن أخذ فتاة في سيارة ليس مضاداً للمثل العليا!

- بل الأمر كذلك عندما تكون السيارة ملكي.

- بالطبع هذا أمر أشدّ من مجافاة المُثل العليا وأقسى، ولكنك لا تستطيع تجاهل التجاوب العاطفي يا جوردون؛ فالقمر بدر الآن والليلة الصيفية التي يجتمع فيها السحرة قد اقتربت.

فتساءل لوك قائلاً: هل الأمر كذلك حقاً؟

فنظرت بريدجت إليه وقالت: يبدو أن هذا يثير اهتمامك.

- أجل، الأمر كذلك.

ثم استدارت بريدجت مرة أخرى نحو اللورد هوايتفيلد وقالت: لقد وصل ثلاثة أشخاص غير عاديين إلى فندق بلز وموتلي، الأول منهم رجل يرتدي بنطالاً قصيراً ويضع على عينيه نظارة ويرتدي قميصاً ملوناً من الحرير، أما الشخص الثاني فهو أنثى قد نزعت شعر حاجبيها وترتدي ثوباً لافتاً للأنظار وتتزين بكميّة كبيرة من حبات العقود وتنتعل حذاء صُنع على الطراز الفرعوني، أما الشخص الثالث فهو رجل ممتلئ الجسم يرتدي سُترة وحذاء لونهما قرمزي. أظن أنهم أصدقاء السيد ألزورثي، وقد ذكرت محرّرة باب الاجتماعيات في الصحيفة المحلية ما مفاده أن الإشاعات تردّدت أن حفلاً صاخباً سيُقام في هذه الليلة في ساحة الساحرات.

فاحمرّ وجه اللورد هوايتفيلد وقال: لن أسمح بذلك.

- لا يمكنك ذلك يا عزيزي لأن ساحة الساحرات ملك للشعب.

- أنا لن أسمح لتلك الشعائر والطقوس غير الدينية بأن تُقام هنا، وسأكشف عن زيفها في صحيفتي المحلية التي لا تُعنى إلا بالكشف عن الفضائح.

وتوقّف قليلاً ثم قال: عليك أن تذكّريني بذلك كي أكتب عنه مذكّرة وأعطيها إلى المحرّر سيدلي لأنني أنوي الذهاب إلى المدينة غداً.

وهنا علّقت بريدجت بصوت فيه بعض السخرية قائلة: حملة اللورد هوايتفيلد ضد السحر والشعوذة! ومعتقدات العصور الوسطى ما تزال مزدهرة في قرية صغيرة هادئة!

وهنا حدق اللورد هوايتفيلد إليها ثم استدار ودخل إلى المنزل، فقال لوك بنبرة فيها مسحة من السرور: يجب أن تقومي بعملك بصورة أفضل من ذلك يا بريدجت.

- ماذا تعني؟

- سيكون من المؤسف أن تفقدي عملك، لا سيما وأن المئة ألف من الجنيهات ليست ملكك بعد، وكذلك الحال بالنسبة إلى الألماس واللآلئ، ولو كنت مكانك لانتظرت حتى انتهاء حفل الزواج لأبدأ بقدراتي في السخرية.

فنظرت بريدجت إليه ببرود وقالت: أشكرك على اهتمامك بي يا عزيزي لوك، ولا سيما إذا كان أمر مستقبلي عزيزاً على قلبك إلى هذا الحد.

- لقد كانت الشفقة والاهتمام من ضمن فضائلي.

- لم ألحظ ذلك.

- أهكذا؟ أنت تدهشينني!

وأرادت بريدجت أن تغيّر موضوع الحديث فقالت: ماذا فعلت في هذا اليوم؟

- استقصاء الأخبار كالعادة.

- وهل حصلت على نتائج؟

- لا ونعم، كما يقول الساسة. بالمناسبة هل توجد أية أدوات في المنزل؟

- أظن ذلك، ولكن أي نوع من الأدوات؟

- أية أدوات يمكن استخدامها يدوياً، يمكنني فحص بعضها.

وبعد انقضاء عشر دقائق كان لوك قد انتهى من اختيار ما يريده من الأدوات ووضعها في جيب ردائه، فسألته بريدجت قائلة: هل تنوي اقتحام بعض الأماكن خلسة وعنوة.

- ربما.

- يبدو أنك لا تريد الإفصاح عن شيء بشأن ذلك الموضوع.

- حسناً، الموضوع ما زال مليئاً بالمصاعب وأنا في موقف حرج، وأظن أنه من الأفضل لي أن أغادر هذا المنزل.

- إن أردت أن تتصرّف كرجل فاضل فعليك بذلك.

- ولكن ما دمت مقتنعاً بأنني أقتفي الأثر الحقيقي الذي سيقودني إلى ذلك القاتل المجنون فهذا يدفعني إلى البقاء، وإذا

كان لديك سبب وجيه مقنع يدعوني إلى مغادرة المنزل والنزول في فندق بلز وموتلي فأرجو مصارحتي به.

وهنا هزّت بريدجت رأسها نفياً، فقال: إذن أنا مُضطر إلى البقاء هنا حتى ولو كان في ذلك إيلامك.

فابتسمت بريدجت ابتسامة حلوة وقالت: لا، مطلقاً.

وبعد لحظات تركها ليقوم بتغيير ملابسه استعداداً لتناول العشاء الذي أُعدّ بهدوء، وبعدها انتقل الرجلان إلى غرفة التدخين حيث اكتسب لوك رضا اللورد هوايتفيلد وذلك بسبب استماعه وإنصاته باهتمام إلى أقوال مضيفه. وبعد مدّة عاد الرجلان إلى غرفة الجلوس حيث قابلتهما بريدجت بقولها: لقد قضيتما وقتاً طويلاً.

فقال لوك: لقد كان حديث اللورد هوايتفيلد شيّقاً جداً، حتى إن الوقت مرّ مثل وميض البرق؛ فقد كان يذكر لي كيف أنشأ أول صحيفة له.

ومرّت السهرة بهدوء وعاد لوك إلى غرفته لينام، ومع ذلك فلم يكُن في عزمه الذهاب إلى الفراش؛ إذ كانت لديه خطط أخرى ينوي تنفيذها. ولم تكَد الساعة تدقّ معلنة انتصاف الليل حتى كان لوك نازلاً الدرَج وقد انتعل في قدميه حذاء التنس، ثم دخل إلى غرفة المكتبة وانطلق إلى خارج المنزل من النافذة. وكانت الريح ما تزال تهب والسماء مليئة بالسحب التي حجبت نور القمر، فسار لوك إلى أن وصل إلى مقرّ السيد ألزورثي؛ إذ كان يريد استكشاف بعض الأشياء وكان متأكداً من أن ألزورثي وأصدقاءه لا بدّ من أن يكونوا جميعاً في ساحة الساحرات في ذلك الوقت، لذا يجب عليه أن ينتهز تلك الفرصة.

وتسلّق لوك الجدار الخلفي للمكان الذي يقيم فيه ألزورثي، ثم أخرج الأدوات المختلفة من جيبه فاختار منها واحدة استخدمها في فتح إحدى النوافذ ودخل منها. وكان معه كشّاف يدوي استخدمه ليرى طريقه كي لا يصطدم بالأثاث، وبعد ربع ساعة كان قد تأكّد له أن المنزل خالٍ فابتسم ابتسامة فيها علامات الرضا، ثم بدأ مهمّته في البحث في كلّ مكان حتى عثر في إحدى الخِزانات على كُتب، ولم يكد يقع نظره عليها وعلى بعض ما جاء بها حتى رفع حاجبيه دهشة وتعجّباً، ثم وجد بعض المعلومات التي أثارت اهتمامه، وكانت الأولى منها جملة كُتبت بالقلم الرصاص في إحدى المفكّرات تقول: «تسوية الموضوع مع تومي بيرز»، وكان التاريخ يسبق مصرع ذلك الصبي بيومين اثنين فقط، أما ثاني المعلومات فكان رسماً بالقلم لآمي جيبز وقد رُسم حرف إكس كبير باللون الأحمر على الوجه كله، أما الشيء الثالث فقد كان زجاجة من دواء السعال. ولم يكُن في تلك الأشياء ما يدلّ على شيء يمكن الاستناد إليه وهي فرادى، ولكنها إذا أُخذت مجموعةً فإنها قد تدلّ على بعض الأشياء.

وبدأ لوك يعيد الأشياء إلى أماكنها عندما وصل إلى سمعه صوت جعله يتجمّد في مكانه ويطفئ كشّافه، وكان كل سمعه متّجهاً إلى صوت مفتاح يُدار في الباب، فأسرع بخطوات متلصّصة إلى باب الغرفة التي كان فيها ووضع عينه على ثقب في الباب ليرى مَن القادم، وقد كان كل أمله في أن يذهب القادم مباشرة إلى الطابق العلوي لأن القادم كان ألزورثي. وفُتح الباب ودخل منه ألزورثي الذي أضاء نور الردهة، وعندما رأى لوك وجهه بذل جهداً كبيراً حتى لا يشهق بصوت مرتفع يكشف وجوده؛ فقد كان وجه ألزورثي على صورة تكاد تختلف كل الاختلاف عن طبيعته؛

إذ كان الزبد يخرج من بين شفتيه وعيناه تبرقان بريقاً غريباً ويسير بخطوات أقرب إلى القفز والرقص منها إلى المشي، ولكن الذي أثار عجب لوك هو يدا ألزورثي اللتان كانتا مخضّبتين بلون أحمر قانٍ، لون أقرب ما يكون إلى لون الدم الجاف. ثم اختفى ألزورثي بعد ارتقائه الدرَج، وبعد لحظة انطفأ نور الردهة، فانتظر لوك برهة ثم خرج من مخبئه إلى الردهة بحذر وغادر المبنى من الطريق الذي دخل منه عبر النافذة.

وعندما أصبح خارج المنزل رمى ببصره إليه فشاهده مظلماً ساكناً، فجذب لوك أنفاسه وقال لنفسه: الحمد لله. ذلك الرجل مجنون حقاً. عجباً! ماذا فعل؟ أُقسم أن الذي كان عالقاً بيديه ما هو إلا دماء.

ثم عاد إلى بيت آسن مانور من طريق جانبي، وعندما اقترب منه سمع صوت حركة بين الأشجار، فاستدار بسرعة وهتف بقوله متسائلاً: من هناك؟

فخرج من بين الأشجار شبح طويل قد التفّ برداء داكن حتى أن منظره بعث القشعريرة في نفس لوك، وما إن أبصر بالوجه الشاحب الذي ظهر من تحت غطاء الرأس حتى هتف قائلاً: بريدجت؟ لقد أفزعتِني.

ولكنها تجاهلت ما قاله وسألته قائلة: لقد رأيتك تخرج، فإلى أين ذهبت؟

- وهل كنت تتبعينني؟

- لا؛ فقد كنت قد ابتعدت كثيراً، ومنذ ذلك الوقت وأنا أنتظر حضورك.

- ما حدث منك يدلّ على التهور.

ولكنها ردّدت سؤالها السابق بصبر نافد قائلة: أين كنت؟

فقال لوك بمرح: لقد كنت أقوم بعملية تلصّص على ألزورثي.

- وهل وجدت شيئاً؟

- لا أعرف بعد، وإن كنت قد عرفت أشياء عن هوايات ذلك الخنزير، وقد وجدت ثلاثة أشياء قد يكون لها دلالتها.

وأنصتت بريدجت بانتباه إلى ما يقوله، وبعد أن انتهى من سرد مغامرته قال لها مؤنّباً: لم يكُن يجدر بك الحضور وحدك يا بريدجت، فالله وحده يعلم ماذا كان يفعل ذلك الرجل! وكان يمكن لأي شخص أن يضربك بشيء على رأسك.

فضحكت بريدجت وهي ترتعش ثم قالت: وهذا ينطبق عليك أيضاً يا عزيزي.

- ولكنني أعرف كيف أحافظ على نفسي.

- وأنا كذلك أيضاً.

- إذن هيا بنا إلى المنزل.

- انتظر.

- لماذا؟

ثم اقتربت منه وأخذت تحدّثه بصوت خافت مرتعش قائلة: عندي ما أودّ أن أذكره لك، وهذا بعض ما دفعني إلى انتظارك في هذا المكان لأقصّ عليك ما عندي قبل أن ندخل إلى المنزل

الذي يملكه جوردون.

- حسناً.

ثم ضحكت ضحكة قصيرة فيها مرارة وقالت: الأمر بسيط جداً، أنت الرابح يا لوك، هذا هو كل شيء.

فسألها بحدّة قائلاً: ماذا تعنين؟

- أعني أنني تخلّيت عن فكرة كوني السيدة هوايتفيلد.

فاقترب منها خطوة وسألها قائلاً: هل هذا صحيح؟

- نعم يا لوك.

- وهل ستتزوجينني؟

- نعم.

- عجباً! لماذا؟

- أنا لا أعرف.

فقال: هذه الدنيا عجيبة!

- لوك، هل أنت سعيد؟

- ليس تماماً.

- هل تظن أنك ستكون سعيداً معي؟

- لا أعرف، ولكنني سأخاطر بذلك.

ثم أخذ يدها وراحا يسيران نحو المنزل عندما ظهر القمر من وراء السحب، وكان بصر بريدجت متّجهاً نحو الأرض عندما

أمسكت بذراع لوك فجأة وأوقفته عن السير وهتفت قائلة: لوك، انظر، ما هذا؟

فجذب لوك ذراعه من بين يدي بريدجت وانحنى لينظر إلى ما استرعى انتباهها، ثم اعتدل واقفاً وقال: هذا هو السائق ريفرز، لقد مات!

ثم نظر إلى الأعلى فوجد أن قطعة الحجر التي كانت مصنوعة على شكل ثمرة الأناناس والتي كانت تزيّن قائمة البوابة لم تعُدْ في مكانها، وسمع بريدجت تقول: لا بدّ أن الحجر سقط عليه لأنه كان غير مثبّت جيداً في مكانه، ولا بدّ أن الريح دفعته.

فهزّ لوك رأسه نفياً وقال: لا يمكن للريح أن تفعل ذلك، هذه وسيلة مدبّرة. هذه حادثة أخرى، ولكنها حادثة مدبَّرة، القاتل مرة أخرى!

- لا، لا يا لوك.

- أؤكّد لك أن هذا هو ما حدث. هل تعرفين ماذا وجدت في الجزء الخلفيّ من رأسه فضلاً عن الدم وغير ذلك؟ لقد وجدت ذرّات من الرمال، ولا يوجد رمل هنا! لا بدّ أن شخصاً انتظره هنا ثم عاجله بضربة على قمّة رأسه، ثم طرحه أرضاً وأسقط ذلك الحجر الذي يمثّل ثمرة الأناناس فوقه.

وهنا هتفت بريدجت بضعف قائلة: لوك، انظر، توجد دماء على يدك.

فقال لوك: وهنا دماء على يدي الأخرى أيضاً. هل تعرفين فيمَ كنت أفكر هذا المساء؟ كنت أفكر في أنه إذا حدثت جريمة أخرى

فسنعرف مَن القاتل بالتأكيد، وها نحن نعلم. القاتل هو ألزورثي؛ فقد كان في الخارج هذه الليلة وعاد بيدين ملطّختين بالدماء وهو يقفز ويرقص كالمجنون.

نظرت بريدجت إلى الجثة الملقاة على الأرض وتمتمت قائلة: يا للمسكين ريفرز!

فقال لوك بشفقة: نعم، إنه مسكين! لقد كان حظّه سيئاً، ولكن هذا الحادث وضع نهاية للحظّ السيئ يا بريدجت لأننا علمنا مَن يكون القاتل وسنقبض عليه.

قالت بريدجت بخوف: لوك، أنا خائفة.

فقال لها مطمئناً: لقد انتهى كل شيء يا حبيبتي، انتهى كل شيء.

فتمتمت قائلة: كُن رقيقاً في حديثك أرجوك؛ فقد تألّمت كثيراً.

فردّ عليها قائلا: آن لنا أن نفرغ من هذا الحديث الأليم، ولن نرجع إليه بعد الآن.

* * *

الفصل السابع عشر

نظر الدكتور توماس إلى لوك في عيادته الخاصة وقال: عظيم، أأنت جاد يا سيد فيتز ويليام؟

- كل الجِد، أنا متأكّد من أن ألزورثي رجل مجنون خطير.

- أنا لم أُعطِ الرجل أية عناية خاصة، ولكنني متأكّد من أنه غير طبيعي.

فقال لوك: وأنا أقول لك بأنه أخطر من ذلك.

فقال توماس: هل أنت متأكد من أن ذلك الرجل، ريفرز، قد قُتل؟

- نعم، أنا متأكد من ذلك. هل لاحظت تلك الذرات من الرمال على الجرح؟

فأومأ الدكتور توماس برأسه وقال: لقد بحثت عنها بعد الذي ذكرته لي وأُقرّ بصحّة ما تقول.

- إذن هذا يعني أن الحادث قد دُبِّر وأن الرجل قد قُتل إثر ضربة بكيس مملوء بالرمال.

- ليس ذلك بالأمر الضروري.

- ماذا تعني؟

فاضطجع الدكتور توماس إلى الوراء في كرسيه وقال: لنفرض أن ذلك الرجل، ريفرز، كان يرقد على الرمال في أثناء النهار، فذلك يُعَدّ تفسيراً كافياً لوجود الرمال في رأسه.

- ولكنني أقول لك بأنه قُتل.

- يمكنك أن تقول ذلك، ولكن هذا لا يعني أنها الحقيقة.

واستجمع لوك أعصابه وهو يقول: أرى أنك لا تصدق حرفاً مما قلته لك.

فقال الدكتور توماس وهو يبتسم بتعالٍ: يجب أن تعترف بأن قصّتك فيها الكثير من الخيال يا سيد فيتز ويليام؛ فأنت تؤكّد أن ذلك الرجل ألزورثي قد قتل خادمة وصبياً ورجلاً ثملاً ثم شريكي وأخيراً ذلك الرجل ريفرز.

- ألا تصدقني؟

فهزّ الدكتور توماس كتفيه وقال: أنا على علم بحادث همبلبي بعض الشيء وأظن أنه من المستبعَد أن تكون لألزورثي أية علاقة بموته.

فقال لوك معترفاً: أنا أُقرّ بأنني لا أعرف كيف تمكّن من عمل ذلك، ولكن كل شيء يتّفق مع قصّة الآنسة بينكرتون.

- أنت تؤكّد أنه تبعها إلى لندن وصدمها بسيارة، ومع ذلك ليست لديك أية قرينة على ذلك.

- أنا متأكّد الآن وليس أمامي إلا أن أصل إلى القرائن

المدعمة، وسأذهب إلى لندن غداً لأرى صديقاً قديماً لي يعمل في الشرطة، وأنا متأكّد من أنه سيأمر بالتحرّي الدقيق في ذلك الشأن.

- أنت تبني كل شيء على ما قالته الآنسة بينكرتون، ولكنك لو عرفت العوانس كما عرفتهن لما أخذت منهن كل شيء على محمل الصدّق.

فقال لوك: أنت رجل كثير الشكوك.

فقال توماس: أعطني بعض الأدلة المؤكّدة فقط وأنا أصدقك بدلاً من أقوال امرأة عجوز.

فقال لوك بتذمّر: ألا تعرف أنني كنت من رجال الشرطة ولست هاوياً؟

فتمتم الدكتور توماس وهو يبتسم بسخرية قائلاً: شرطي من مضيق مايانغ؟!

- الجريمة هي الجريمة حتى لو كانت في مضيق مايانغ.

- طبعاً، طبعاً.

وعلى هذه الحال ترك لوك عيادة الدكتور توماس وهو في حالة من الضيق، ثم التقى ببريدجت التي سألته قائلة: كيف سارت الأمور؟

- لم يصدّقني، وأظن أن لديه كل الحق في ذلك؛ فهي قصّة خيالية دون أية وقائع تؤيّدها.

فقالت بريدجت: أناشدك الله أن تكون حذراً يا لوك.

- سأبذل كل جهدي للابتعاد عن الأخطار.

- أنا أشعر بأنك مهدّد بالأخطار.

- لا يهم ما دمت أنت في مأمن.

- ربما لا أكون كذلك.

- لا أظن، ولكنني لن أخاطر وسأراقبك وأحميك كملاكٍ حارس.

فقالت بريدجت: هل توجد أية فائدة من إطلاع الشرطة هنا على الموضوع؟

ففكر لوك قليلاً ثم قال: لا أظن ذلك، والأفضل أن أذهب إلى اسكتلنديارد الآن.

فقالت بريدجت متمتمة: هذا ما فعلَته الآنسة بينكرتون أيضاً.

وهنا قال لوك: وماذا بشأن هوايتفيلد؟

فقالت بريدجت بسرعة: دعنا نترك هذا الأمر حتى تعود غداً فنصارحه.

- هل تعتقدين بأنه سيتألّم؟

- لا أعتقد أنه سيكون مسروراً؛ فجوردون لا يحب أن يضايقه أحد.

فقال لوك بهدوء: الموضوع كله لا يسرّني.

وكانت تلك حال لوك عندما جلس في تلك الليلة ليستمع مرّة أخرى إلى تفاخر اللورد هوايتفيلد الذي راح يتحدّث عن موت سائقه فقال بتباه: لقد ذكرت أن ذلك الرجل سيلاقي نهاية سيئة

بالأمس. ألم أقُل لك ذلك؟

- بلى، لقد قلت ذلك حقاً.

- وهكذا ترى أنني كنت على حق، ومن الغريب أن أحكامي صائبة دوماً!

- لا بدّ أن ذلك شيء عظيم بالنسبة إليك.

- أجل، لقد كانت حياتي عظيمة دائماً، والطريق ممهد أمامي في هذه الحياة لأنني أؤمن بالله وأثق به، وهذا هو السرّ الحقيقي لنجاحي يا فيتز ويليام، فأنا رجل متدين أعرف الخير والشر وأميّزهما، وأعرف أنه توجد عدالة سماوية.

- وأنا أؤمن بالعدالة أيضاً.

- نعم، كن صادقاً ومخلصاً في أفعالك بالنسبة إلى خالقك وستجده يساندك في كل أفعالك. لقد كنت أتصدّق من أموالي التي جمعتها بطريق الحلال ولا أحني رأسي لأي مخلوق، لذا تجدني وحيداً، ولكنني ذلك الرجل القوي وأعدائي يتساقطون واحداً تلو الآخَر. انظر إلى حادث الأمس، لقد حاول ذلك الرجل إيذائي ورفع يده عليّ، وها أنت تعرف ما حدث، فأين هو الآن؟

وصمت برهة ثم أضاف قائلا: لقد مات نتيجة تدخّل العناية الإلهية.

وفتح لوك عينيه بدهشة وقال: ألا ترى معي أنه عقاب شديد بالنسبة إلى كلمات قيلت في لحظة كان قائلها غير طبيعي فيها؟

فهزّ اللورد هوايتفيلد رأسه وقال: بلى، لقد كان الأمر كذلك دائماً، فمن يقف ضدي يعاقَب بشدة وسرعة، وذلك يحدث مع

أعدائي دائماً، حتى مع ذلك الصبي الذي كان يعمل في خدمتي. لقد فاجأته يوماً في الحديقة وهو يقلّدني، يقلدني أنا ويسخر منّي أمام جمع من الناس يضحك على أفعاله فوق الأرض التي أمتلكها، هل تعرف ماذا حدث له؟ لم تمرّ عشرة أيام حتى سقط من نافذة علوية ومات. ثم انظر إلى كارتر الذي جاء إلى هنا وترك لسانه السليط يسبّني، ماذا حدث له؟ لقد غرق بعد أسبوع واحد من ذلك الحادث. وكانت توجد هنا فتاة رفعت صوتها عليّ ووصفتني ببعض الصفات التي لا تليق، فإذا بها تلقى عقوبتها بسرعة؛ لقد تجرّعت سماً بطريق الخطأ. ويمكنني أن أضيف إلى كل ذلك همبلبي الذي عارضني في مشروع المياه فمات بعد أيام نتيجة تسمّم دموي. ذلك يسير على الحال نفسها منذ أعوام، فمثلاً السيدة هورثون التي كانت جافة في معاملتها معي، لم يمرّ عليها وقت طويل حتى ماتت.

وتوقف بُرهة ليقول بعدها: نعم، لقد مات كل من وقف ضدي، أليس ذلك غريباً؟

فنظر لوك إليه بدهشة وقد قفز إلى خاطره شكّ غير معقول دفعه إلى أن ينظر إلى الرجل القصير الماثل أمامه بعُجب سافر في حين تمتم اللورد هوايتفيلد وهو يبتسم بسرور ويومئ برأسه إلى لوك قائلاً: نعم، لقد ماتوا كلهم.

* * *

الفصل الثامن عشر

بدأ السيد ويليم أوسينغتون يحدق إلى ضيفه مدهوشاً ثم قال: ألم يكفِك ما قابلت من الجرائم في مايانغ كي تأتي إلى هنا لتكتشف لنا جرائمنا؟

فقال لوك: لم تكُن الجرائم في مايانغ بالجملة كما هي الحال في هذه الآونة. أنا ضد رجل ارتكب ست جرائم على الأقل ولم يُكتشَف أمره.

- هل هو مجنون؟

- لا شكّ في ذلك.

- إذن دعنا من الاصطلاحات الفنية وحدثني بما تريد.

- ما أريده منك هو بعض المعلومات عن حادثة وقعت في الطريق في يوم سباق الدربي بين الساعة الخامسة والسادسة مساء. لقد دهمت سيارة سيدةً عجوزاً اسمها لافينيا بينكرتون ولم تتوقّف السيارة، وأنا أرغب في معرفة كل ما يتعلّق بتلك الحادثة.

فتنهد السيد ويليم وقال: سأحضر لك ما تريده في غضون عشرين دقيقة.

وفعلاً لم تمرّ تلك المدّة حتى كان لوك يتحدّث شخصياً إلى رجل الشرطة الذي كان قد وُكل إليه أمر تلك الحادثة والذي قال له: نحن لم نقبض على الفاعل، ولكن من المؤكد أن السيارة التي دهتمها كانت من نوع رولز رويس، وقد ذكر أحد الشهود أنه التقط رقم السيارة الذي كان «ف ذ ٤٤٩٨»، ولكن اتّضح لنا أن ذلك الرقم خطأ.

فقال لوك بسرعة: وكيف عرفت أن ذلك الرقم غير صحيح.

- لأن ذلك الرقم خاص بسيارة هوايتفيلد التي كانت تقف في ذلك الوقت أمام بلومينغتون هاوس، وكان السائق يتناول الشاي وقتها وعنده مَن يشهد بذلك وبأن السيارة لم تترك مكانها حتى بعد منتصف الساعة السادسة.

فأومأ لوك برأسه وكأنه اقتنع بما ذُكر له، ثم شكر رجل الشرطة الذي انصرف. وهنا سأل السيد ويليم ضيفه قائلا: ما الأمر يا فيتز؟

فتنهد لوك وقال: الأمر كله واضح، فقد حضرت الآنسة بينكرتون إلى هنا لتذكر شكوكها المتعلّقة بالقاتل إلى رجال اسكتلنديارد المهَرة، وكانت تأمل في الاستماع إليها.

- من المحتمل أننا كنا سنستمع إليها.

- ولا بدّ أن هذا هو ما دار في عقل القاتل فرأى أن يتخلّص من لافينيا بينكرتون مع أن أحد الشهود التقط رقم سيارته.

وهنا استوى السيد ويليم في مقعده وقال: هل تعني...؟

- نعم، أنا على استعداد أن أراهنك بأي شيء على أن هوايتفيلد هو الذي صدم تلك السيدة مع أنني لا أعرف بعد كيف قام بعمل ذلك، ومن المحتمل أن يكون قد ارتدى معطفاً وقبّعة كسائق، ولكنني أؤكّد أنه فعل ذلك.

- هذا مستحيل!

- ليس ذلك مستحيلاً؛ فقد كان الرجل يتشدّق بذلك بالأمس فقط.

- هذا رجل مجنون إذن!

- أجل، مجنون، ولكنه مجنون ماكر، فكُن على حذر منه ولا تدعه يشكّ في أنك تشتبه فيه.

فتمتم السيد ويليم قائلاً: هذا غير معقول!

فقال لوك: ولكنه الواقع.

وبعد ذلك تحدّث الرجلان في الموضوع مدّة من الوقت، وبعدها قام لوك كي يعود إلى ويتشوود. وهناك توقّف بسيارته أمام منزل الآنسة وينفليت، ودعته الخادمة إلى الدخول حيث وجد الآنسة وينفليت جالسة أمام الطاولة، ولم تلبث أن رأته حتى قامت من مقعدها واستقبلته بدهشة دفعته إلى أن يقول: يجب أن أعتذر إليك عن حضوري في هذه الساعة.

ثم تلفّت حوله فوجد أن الخادمة غادرت الغرفة وأغلقت الباب خلفها فقال: سأسألك سؤالاً شخصياً يا آنسة وينفليت، وأرجو أن تغفري لي هذا السؤال.

- لك أن تسألني ما شئت من الأسئلة.

- أشكرك.

وتوقّف لوك قليلاً قبل أن يقول: أريد أن أعرف بالضبط، كيف فُسخت خطوبتك من اللورد هوايتفيلد منذ عدّة سنوات؟

ويبدو أنها لم تكُن تتوقّع ذلك السؤال فارتفعت الدماء إلى وجهها، ثم رفعت إحدى يديها إلى صدرها بحركة لا شعورية وسألته قائلة: هل ذكر لك شيئاً يتعلّق بطائر، طائر دقّ عنقه؟

فقال لوك: نعم، لقد ذكر ذلك.

فقالت متسائلة ومتعجبة: هل ذكر لك ذلك؟ هل تعني أنه اعترف بذلك؟! هذا أمر غير معقول!

- هلاّ ذكرت لي الموضوع بتفصيلاته.

- نعم، سأقول، ولكنني أتوسل إليك أن لا تدلي إليه بشيء مما سأقوله؛ فقد كان ذلك في الماضي الذي انتهى ولا رجعة له ولا أريد أن أُثير غبار الماضي.

وأتبعت ذلك بنظرة توسل ورجاء فأومأ لوك برأسه مطمئناً، فقالت: أشكرك. لقد حدث الآتي، كان عندي طائر من نوع الكناريا وكنت مغرمة به جداً مثل أية فتاة في ذلك الوقت، ولا بدّ أن شغفي به أثار الرجل؛ فقد كان جوردون يغار من ذلك الطائر، حتى إنه قال لي في أحد الأيام وقد ثارت عصبيته: "أعتقد بأنك تحبين ذلك الطائر أكثر منّي"، فأجبته مثل أية فتاة غريرة وأنا أضع الطائر على إصبعي قائلة: "نعم، أنا أحبك أيها الطائر الصغير العزيز أكثر بكثير من أي صبي يافع". آه، لقد كان الأمر مفزعاً؛ فقد أمسك جوردون بالطائر فجأة ودقّ عنقه، وكانت صدمة لي لا يمكن أن أنساها.

- وهكذا فسخت خطبتك؟

- نعم، فلم أعُد أشعر بنفس الشعور الذي كان يختلج في صدري بعد ذلك لأنني شعرت بأنه كان مسروراً وهو يفعل ذلك، وهذا ما أشعل نيران خوفي.

فتمتم لوك قائلاً: حتى في ذلك الوقت البعيد؟!

وهنا وضعت الآنسة وينفليت يدها على ذراعه وقالت: سيد فيتز ويليام.

فرفع لوك بصره إليها ليرى في عينيها نظرة رجاء فقال: اللورد هوايتفيلد هو الذي ارتكب تلك الجرائم كلها، وأنت تعرفين ذلك، أليس كذلك؟

فهزّت رأسها بعنف وقالت: لم أكُن أعرف ذلك، ولو عرفت لتكلّمت، ولكنني كنت أخاف أن يكون الأمر كذلك.

- ومع ذلك لم تذكري لي شيئاً.

- وكيف يكون ذلك في مقدوري؟ لقد شغفني حبه يوماً ما.

- نعم، أعرف ما تعنين.

ثم مسحت عينيها بمنديل التقطته من حقيبتها وقالت: أنا مسرورة لأن بريدجت فسخت خطبتها معه وستتزوجك، أليس كذلك؟

- بلى.

وهنا تغيّر لون وجه الآنسة وينفليت وقالت: ولكن يجب أن

يأخذ كل منكما حذره.

- أتعنين من اللورد هوايتفيلد؟

- نعم، ومن الأفضل أن لا يذكر له أحدكما ذلك.

فقطب لوك جبهته وقال: لا أظن أن أحدنا يرغب في ذلك.

- يبدو لي أنكما لا تعرفان أن ذلك الرجل مجنون، مجنون كل الجنون، ولن يرضى بذلك، وإذا حدث لها شيء...

- لن يحدث لها أي شيء.

- نعم، أعرف ذلك، ولكنني أرجو أن يكون في تقديرك أنك لست نداً لذلك الرجل في مكره. خذها بعيداً وفوراً، هذا هو أملك الوحيد. دعها تغادر البلاد معك.

فقال لوك ببطء: أظن أن من الأفضل لها الرحيل، ولكنني سأبقى.

- لقد كنت أخاف أن تقول ذلك، ولكن دعها ترحل فوراً.

فأومأ لوك برأسه وقال: أعتقد أنك على حق.

- أنا أعرف أنني على حق. دعها ترحل قبل أن يتأخّر الوقت.

* * *

الفصل التاسع عشر

سمعت بريدجت صوت سيارة لوك وهي قادمة فأسرعت تستقبله ثم قالت دون مقدّمات: لقد قلت له.

- ماذا؟!

قالها وقد ظهر على وجهه اليأس، فقالت: لوك، ماذا حدث؟ ولماذا اضطربت هكذا؟!

فقال ببطء: أعتقد أننا اتفقنا على إرجاء إخباره إلى أن أعود.

- أعرف ذلك، ولكنني ظننت أنه يحسُن أن ننتهي من الموضوع؛ فقد كان يُعدّ العدّة للزواج فلم أجد مفراً من إخباره وهو أمر تقتضيه اللياقة.

- أحياناً يكون لا مفرّ من عدم اتّباع قواعد اللياقة.

- لوك، ماذا تعني بذلك؟!

- لا يمكنني مصارحتك الآن. أخبريني كيف كان وقع الخبر عليه؟

فقالت بريدجت ببطء: وقعاً حسناً جداً على ما ظهر لي، وأظن أننا قد أعطينا الرجل حقه. إنه رجل عظيم فعلاً!

فأومأ لوك برأسه وقال: من المحتمل أن يكون رجلاً عظيماً حقاً، ولكن عليك أن تخرجي من هنا في أسرع وقت ممكن.

- طبعاً، سأقوم بحزم حاجاتي اليوم، ويمكنك أن تنقلني بسيارتك إلى القرية حيث يمكنني النزول في فندق بلز وموتلي، هذا إذا كان أصحاب ألزورثي قد غادروه.

فهزّ لوك رأسه وقال: لا، من الأفضل لك الذهاب إلى لندن، وسأوضح لك سبب ذلك فيما بعد، ويحسن بي أن أقابل هوايتفيلد الآن.

ثم تركها لوك ودخل إلى المنزل حيث وجد اللورد هوايتفيلد يذرع غرفة الجلوس ذهاباً وإياباً، وكانت تظهر عليه علامات الهدوء بعض الشيء حتى إنه كانت توجد ابتسامة تداعب شفتيه، وبالرغم من ذلك شاهد لوك عرَقاً يقطر من جبهته قطراً متتالياً.

واستدار اللورد عندما دخل لوك إلى الغرفة وقال: آه، ها أنت يا فيتز ويليام!

فقال لوك: لا داعي إلى أن أُظهر أسفي لما حدث لأن ذلك يُعَدّ نفاقاً، وأنا أعترف بأنني تصرّفت تصرّفاً سيئاً من وجهة نظرك أنت، وليس لدي إلا القليل الذي يمكنني ذكره دفاعاً عن نفسي، ولكن كثيراً ما تحدث تلك الأشياء.

عاد هوايتفيلد إلى ذرع الغرفة وقال: صحيح، صحيح.

- لقد عاملتك أنا وبريدجت معاملة شائنة، ولكن الواقع أن

كلاً منا يحب الآخَر وليس أمامنا إلا أن نذكر لك الحقيقة.

وهنا توقّف اللورد هوايتفيلد، ثم استدار إلى لوك وقال بلهجة غريبة: نعم، ليس في مقدوركما عمل أي شيء.

فقال لوك بحدّة: ماذا تعني بذلك؟

- ليس في مقدوركما عمل أي شيء؛ فقد تأخّر الوقت.

فاقترب منه لوك خطوة وقال: أخبرني ماذا تعني بذلك؟

فقال اللورد هوايتفيلد دون توقّع: سل هونوريا وينفليت وسوف تُفهمك ما أعنيه لأنها تعرف ما حدث؛ فقد ذكرَت لي ذلك مرّة من قبل.

- ما الذي تفهمه هي؟

فقال اللورد هوايتفيلد: الشرّ لا يمكن أن يسير طليقاً دون عقاب ولا بدّ أن توجد عدالة. أنا آسف لأن حب بريدجت شغفني، بل أنا آسف عليكما.

فسأله لوك قائلاً: هل تهدّدنا؟

وكان وقع السؤال على اللورد هوايتفيلد بمثابة صدمة له حين أسرع يقول: لا، لا يا صديقي، فعواطفي ليس لها دخل في الموضوع؛ إذ إنني عندما شرفت بريدجت باختيارها زوجة لي قبلَت ذلك، وبالتالي كان في قبولها تحمّل لمسؤوليات معيّنة، والآن ها هي تتخلّى عن تلك المسؤوليات. ولكن لا يمكن التخلي عن المسؤوليات في الحياة هكذا، والمرء إذا خالف القوانين فلا بدّ أن يدفع عقوبة ذلك.

فضمّ لوك قبضتَي يديه وقال: هل تعني أن شيئاً سيحدث لبريدجت؟ اسمعني جيداً يا هوايتفيلد، لن يحدث شيء لبريدجت أو لي أنا، وإذا حاولت أن تفعل شيئاً مثل ذلك فمعنى هذا النهاية بالنسبة إليك، ومن الأفضل لك أن تكون حذراً؛ فأنا أعرف الكثير عنك.

فقال اللورد هوايتفيلد: الأمر لا يتعلق بي؛ فما أنا إلا أداة لقوة عليا، وما تقضي به تلك القوة يحدث.

- أرى أنك تعتقد بما تقوله.

- لأن تلك هي الحقيقة، فكل من يقف ضدي يدفع الثمن، ولكن ستكون أنت وبريدجت استثناء لتلك القاعدة.

فقال لوك: ولكنك تخطئ في ذلك، فمهما حالف الحظّ فرداً فلا بدّ أن يتخلى عنه في النهاية، وأنت قد اقتربت من نهايتك.

فقال اللورد هوايتفيلد بهدوء: يا صديقي، أنت لا تعرف ما تتحدّث عنه ولا مَن الذي تتحدّث إليه. لا يوجد شيء يمكنه المساس بي.

- أهكذا؟ سنرى، ولكن عليك أن تراقب خطواتك جيداً يا هوايتفيلد.

- لقد فرغ صبري فاخرج من هنا.

- سأخرج بأسرع مما تتصوّر، ولكن تذكر أنني حذرتك.

وخرج لوك من الغرفة مسرعاً، ثم ارتقى الدرَج إلى الطابق العلوي حيث وجد بريدجت في غرفتها تجهّز الحقائب بمعاونة

خادمة فسألها قائلاً: هل ستكونين مستعدّة بعد قليل؟

- بعد عشر دقائق.

وراح لوك يراقبها حتى انتهت من حزم حقائبها، وعندما همّا بمغادرة المنزل اعترضهما رئيس الخدم وذكر أن الآنسة وينفليت قد قدمت لزيارة بريدجت وأنها ترغب في رؤيتها وأنها تنتظرها في غرفة الجلوس. وهناك وجدتها مع اللورد هوايتفيلد الذي بدأ الحديث قائلاً: استمتعي بالحديث إلى بريدجت يا هونوريا لأنها لن تمكث معنا طويلاً.

فاستدارت الآنسة وينفليت إليه بسرعة وسألته بحدّة قائلة: ماذا تعني بذلك؟

فضحك اللورد هوايتفيلد وقال: أعني أنها ستذهب إلى لندن، أليس ذلك صحيحاً؟

ثم دار ببصره إلى الجميع وقال: عندي لك بعض الأنباء يا هونوريا، بريدجت لن تتزوجني لأنها تفضّل فيتز ويليام هذا. الحياة غريبة حقاً! سأترككما الآن لتتحدثا معاً.

ثم خرج من الغرفة فعقّبت بريدجت بقولها: أنا أشعر بأنه في أشد حالات الغضب. هذا أمر فظيع! فماذا سنفعل؟

فقالت الآنسة وينفليت: ما كان يجب عليك إخباره!

فقالت بريدجت: هراء، إذن ماذا كنا سنفعل غير ذلك؟

- ما كان عليك إخطاره الآن بل بعد خروجك من هنا.

فقالت بريدجت: هذا موضوع تختلف فيه الآراء، ورأيي

الشخصي أنه من الأفضل الانتهاء من الموضوعات غير السارة في أسرع وقت ممكن.

- آه يا عزيزتي! ليت الأمر كان قاصراً على ذلك فقط.

وصمتت بُرهة ثم وجّهت نظرة متسائلة إلى لوك الذي هزّ رأسه نفياً وكأنه يقول: لا. فتمتمت الآنسة وينفليت بما يفيد أنها تعرف ما يريد قوله لها، وهنا سألتها بريدجت قائلة: هل تريدين رؤيتي لسبب ما؟

فقالت الآنسة وينفليت: لقد جئت أطلب منك أن تكوني ضيفة عليّ لبعض الوقت لأنه قد دار بخلدي أنك لن تستريحي إذا أقمت هنا وأنك قد تحتاجين إلى بضعة أيام تقضينها بهدوء لترسمي خطط المستقبل.

- أشكرك يا آنسة وينفليت، هذا يدلّ على طيبتك.

- لا تقولي هذا، ولا سيما أنك ستكونين آمنة معي...

فقاطعتها بريدجت متسائلة بقولها: آمنة؟

فقالت الآنسة وينفليت بارتباك: أعني في راحة كاملة عندي.

- شكراً، ولكنني ذاهبة إلى مسكن عمّتي في لندن، مع أنني أعرف أنها لن تكون موجودة هناك في هذا اليوم.

- هل تعنين أنك ستكونين في ذلك المنزل وحدك؟ لا يجدر بك ذلك.

فقال لوك معقّباً: الأفضل أن تذهبي إلى فندق.

فاستدارت بريدجت نحوه وقالت بحدّة: لماذا؟ ماذا دهاكما؟ لماذا تعاملانني وكأنني طفلة غريرة؟

فاحتجّت الآنسة وينفليت بقولها: لا، لا يا عزيزتي، كل ما نريده منك أن تكوني على حذر.

- ولكن لماذا؟!

فقال لوك: استمعي إليّ يا بريدجت، أنا أريد أن أتحدث إليك ولكن ليس هنا، فهيا بنا إلى منزل الآنسة وينفليت.

ثم خرجا من المنزل وركبا في سيارته، وبعد أن أغلقا الباب تنهد لوك بارتياح وقال: أشكر الله على أنني أخرجتك من هنا سالمة.

فقالت بريدجت: هل جُننت يا لوك؟! ما الأمر؟

فقال لوك بتجهم: يوجد الكثير من الصعوبات كي نقوم بإيضاح أنه ليس مما تُحمد عواقبه البقاء في منزل رجل قاتل.

وجلست بريدجت إلى جواره للحظة دون حراك ثم قالت: جوردون؟!

فأومأ لوك برأسه قائلاً: جوردون هو القاتل.

- أنا لم أسمع هراء مثل هذا طوال حياتي، إنه غير قادر على إيذاء فراشة.

فقال لوك: قد يكون ذلك صحيحاً، ولكنه قتل عصفوراً من الكناريا، وأنا واثق من أنه قتل عدداً كبيراً من الأشخاص.

- عزيزي لوك، أقولها لك ببساطة: أنا لا أصدّقك.

- أعرف ذلك، فالأمر بعيد الاحتمال لأنني لم أشكّ فيه حتى الليلة قبل الماضية قطّ، وعليك أن تغيّري آراءك كلها عنه.

- هذا من العبث يا لوك؛ فأنا لا يمكنني تصديق ذلك، ولا أعرف ما الذي جعلك تثق في هذا الهراء الذي تقوله ولا سيما وأنك كنت متأكداً من أن ألزورثي هو القاتل منذ يومين.

فقال لوك: أعرف ذلك، وقد يدور في خاطرك أنني سأتهم هورثون بأنه المجرم في الغد. وأعترف بأن الفكرة مذهلة في أول الأمر، ولكنك إذا دقّقت النظر فيها وجدت أنها تتّفق مع ما حدث، وليس ذلك بعجيب إذا تذكّرت أن الآنسة بينكرتون لم تفكّر في الذهاب بقصّتها إلى السلطات المسؤولة المحلية لأنها كانت تعرف أنهم سيسخرون منها، لذا كان أملها الوحيد هو في الذهاب إلى اسكتلنديارد.

- ولكن أي دافع يجعل جوردون يرتكب جرائم القتل تلك كلها؟

- ألا تدركين مقدار اعتزاز جوردون هوايتفيلد بنفسه اعتزازاً فيه مغالاة كبيرة؟

- الأمر لا يعدو كونه يظن نفسه أنه كبير جداً ومهم جداً، وهذا مجرّد نقص.

- ربما كان هذا هو سبب كل شيء، ولكنني أرجوك أن تفكري معي لحظة يا بريدجت. ألا تذكرين أنك قلت إنه أحد المصابين بمرض جنون العظمة؟

وفكرت بريدجت لدقيقة ثم قالت: ما زلت غير مصدقة لما

تقول، فأي دليل لديك على صحة أقوالك؟

- حسناً، أقواله هو نفسه، فقد قال لي بصراحة ووضوح في الليلة قبل الماضية بأنه إذا اعترض شخصٌ طريقَه في أية صورة فإن ذلك الشخص سيموت، وليست العبرة في الكلمات التي ذكرها وإنما في النبرات التي ألقاها بها، فقد كان يثق كل الثقة بتلك الفكرة التي تمتلك تفكيره كله ولا سيما أنه ذكر لي قائمة بأسماء الذين عارضوه فلقوا حتفهم، كما ذكر أسماء الذين ماتوا هنا وآخِرهم السائق ريفرز.

وهنا بدا على بريدجت أنها بدأت تفهم مدلول حديث لوك إذ بدأ الشحوب يظهر على وجهها، ثم وضعت يديها على عينيها وتمتمت قائلة: هذا أمر فظيع، فظيع جداً!

- أعرف ذلك ولكنك لا تعرفين أن السيارة التي دهمت الآنسة بينكرتون في لندن هي من نوع رولز رويس، وأن الرقم الذي قيل إنها تحمله هو رقم سيارة اللورد هوايتفيلد نفسه.

فقالت بريدجت ببطء: إذن هذا هو الدليل القاطع؟

- أجل، مع أن شرطة لندن ظنت أن الشاهد الذي أعطاهم رقم السيارة كان مخطئاً.

- نعم، ولا بدّ أن سبب ظنهم هذا كونه ثرياً ويحمل لقباً رفيعاً.

- ولقد أشارت الآنسة وينفليت إليه في حديثها معي، وأظنها كانت تأمل في أن أهتدي بإيحائها.

- إذن كانت تعلم؟

- كان لديها شكّ كبير، وأظن أن ما جعلها مقيّدة الحركة هو أنها كانت على علاقة حب معه في يوم من الأيام.

فأومأت بريدجت برأسها وقالت: أجل، ذلك يفسر كثيراً من الأمور لأن جوردون ذكر لي مرّة أنه كان خطيباً لها، وقد فسخ تلك الخِطبة.

- لا، هي التي فسخت الخطبة، وكان ذلك مرجعه إلى قصّة أليمة.

ثم قصّ عليها لوك قصّة الطائر، فسألته بريدجت قائلة: هل فعل جوردون ذلك؟

- نعم، وقد ذكرت لي الآنسة بينكرتون في القطار قُبيل موتها أنني سأُدهَش مثلما دُهشت هي حتى إنها ظنت نفسها تتخيّل أشياء لا أساس لها من الصحة، ولكنها تأكّدت من أنها على صواب بعد المرات الأولى والثانية والثالثة والرابعة، وقالت إنه من السهل ارتكاب جريمة إذا عرف القاتل كيف يختار طريقة القتل وكان بمنأى عن الشبهات.

وشعرت بريدجت بقشعريرة تسري في جسدها ثم قالت: لا غرو في أن تلك الكلمات علقت بذاكرتك، وبالطبع يكون الأمر من السهل جداً تصديقه بالنسبة إلى رجل في مركز جوردون.

- أجل، ولكن ليس من السهل إلقاء القبض عليه.

- هل تظن ذلك؟ قد يمكنني مساعدتك في ذلك.

- بريدجت، أنا أمنعك.

- لا تستطيع ذلك؛ فليس في مقدور المرء أن يستكين ويخلد

إلى الأمان. أنا معك في أن الأمر خطير يا لوك، بل قد يكون الأمر أخطر مما نظن، ولكن عليّ أن أقوم بواجبي، وسأقبل دعوة الآنسة وينفليت. نعم، أعلم أن الأمر خطير بالنسبة إلى كل منا، ولكننا معاً يا لوك، معاً.

* * *

الفصل العشرون

جلست بريدجت في الغرفة مع الآنسة وينفليت في منزل الأخيرة التي قالت لها: غرفتك لم تُعَدّ بعدُ يا عزيزتي، ولكن الخادمة إميلي تقوم بذلك الآن، وإلى أن تنتهي من عملها سأعدّ لك كوباً من الشاي.

– هذا عمل يدلّ على عظيم كرمك يا آنسة وينفليت، ولكن الحقيقة أنني لا أريد شيئاً الآن.

والواقع أن بريدجت كانت تفضّل عصيراً لا سيما أنها كانت لا تحب الشاي لأنه كان يسبب لها عسراً في الهضم، ولكن الآنسة وينفليت غادرت الغرفة بالرغم من الاحتجاجات وعادت بعد دقائق وقد أحضرت معها كوبين من الشاي المعطّر.

وفي تلك اللحظة دخلت الخادمة إميلي ونادت سيدتها وسألتها عن الحشيات التي ستوضع في فراش الضيفة مما دفع بالآنسة وينفليت إلى الخروج من الغرفة بسرعة، فانتهزت بريدجت تلك الفرصة وألقت ما في كوبها من النافذة بسرعة وعادت إلى مقعدها قبل أن تعود الآنسة وينفليت إلى الغرفة بلحظات، ثم تبادلت الاثنتان بعضَ الكلمات العابرة قبل أن يرنّ جرس الهاتف، فأسرعت إليه بريدجت لتجد أن المتكلم هو لوك الذي ذكر لها

أن حقائبها ستتأخّر في الوصول إليها إلى ما بعد الغداء لأن أحد المفتّشين من اسكتلنديارد وصل ويريد أن يتحدّث إليه وهو راغب في أن يلقي عليه بعض الأسئلة، ثم أعادت السماعة إلى مكانها وعادت إلى التحدث مع مضيفتها.

وبعد دقائق شعرت بالتعب، ثم بدأ النعاس يتغلّب عليها فأظهرت الآنسة وينفليت اهتماماً مفاجئاً وقالت: أنت متعبة يا عزيزتي ومن الأفضل لك أن ترقدي. ولكن لا... أظن أن ذلك سيضرّ بك قبل أن تتناولي طعام الغداء. لقد كنت أعتزم حمل بعض الملابس القديمة إلى سيدة فقيرة تقطن في كوخ ليس بعيداً عن هنا في وسط الحقول، فماذا لو جئت معي؟

فوافقت بريدجت على ذلك، وخرجت الاثنتان وقد ارتدت الآنسة وينفليت قبّعة من الخوص وقفازاً، وأثار القفاز عجب بريدجت ولكنها لم تنطق حرفاً واحداً. وبعد مسيرة بضع دقائق، وكان اليوم حاراً، اقترحت الآنسة وينفليت أن تجلسا للراحة قليلاً، فوافقت بريدجت وهي تشعر بالنعاس، ثم جلست وقد أغمضت عينيها من التعب.

وهنا سمعت الآنسة وينفليت تخاطبها قائلة: أنت تعانين من شدة النعاس يا عزيزتي، أليس كذلك؟

وسمعت بريدجت تلك الكلمات بصوت عادي، ولكنه كان يحمل في طياته نبرة غريبة دفعت بها إلى أن تفتح عينيها فجأة لتجد الآنسة وينفليت قد انحنت فوقها وفي عينيها نظرة ترقّب ولسانها يمرّ على شفتيها، ثم سمعتها تعيد قولها: أنت تعانين شدّة النعاس، أليس كذلك؟

وهنا لم تعُد نبرة الصوت غريبة على مسمع بريدجت، وفي لمح البصر دار في خلدها حقيقة الوضع السيئ، فألقت على نفسها باللائمة لعدم فهمها كل شيء بالسرعة الكافية. وتذكّرت فجأة أن الشاي الذي كانت ستشربه لا بدّ من أنه كان فيه مخدّر، وتذكّرت أن الآنسة وينفليت لا تعلم أنها لم تشربه وأن عليها أن تقوم بتمثيل دورها وكأنها في حال تخدير، لذا أغلقت عينيها مرة أخرى ثم قالت بصوت يوحي بالنعاس: بلى، أعاني شدّة النعاس. هذا أمر غريب! فأنا لم أشعر من قبل بنعاس مثل هذا.

وفجأة تفتق ذهنها عن السبب الذي من أجله ارتدت الآنسة وينفليت في يديها قفازاً، ومن بين جفنيها راحت تراقب الآنسة وينفليت، فرأتها تخرج سكّيناً كانت قد شاهدت اللورد هوايتفيلد ممسكاً به في يده قبل مغادرتها منزله عندما قابلت الآنسة وينفليت هناك، فعلمت أن السكّين لا بدّ من أنه ما زال يحمل بصمات أصابع هوايتفيلد.

وشعرت بأنها سيُغمى عليها، ولكنها فتحت عينيها وقالت بصوت جعلته ضعيفاً وغليظاً: ما هذا؟ سكين؟!

وهنا ضحكت الآنسة وينفليت ضحكة غريبة كأنها غير صادرة عن إنسان بشري وقالت: هذه لك يا بريدجت، لك. لقد كرهتك كما تعلمين منذ زمن بعيد.

- تكرهينني لأنني كنت سأتزوج جوردون هوايتفيلد، أليس كذلك؟

فأومأت الآنسة وينفليت برأسها وقالت: أنت ذكية، ذكية جداً، وسيكون في هذا السكين الدليل القاطع على إدانته،

وسيجدونك هنا وقد حُزّ عنقك بالسكين، السكين الذي يملكه وعليه بصمات أصابعه. لقد طلبتُ منه أن يريني إياه في صباح اليوم، ثم سرقته منه ووضعته في حقيبتي بعد أن لففته في منديل، وهذا يدل على ذكائي، ذكائي الذي أتمتع به منذ أن كنت فتاة. ثم جاء جوردون ابن صانع الأحذية الطموح. كنت أعلم أنه سيرتقي سلّم النجاح، ولكنه تركني... تركني أنا، وذلك كله بسبب الطائر المشؤوم، تركني أنا ابنة الكولونيل وينفليت، فأقسمت على أن يدفع ثمن ذلك. كنت أفكر في ذلك ليلة بعد ليلة، ثم أصابنا الفقر وعُرض منزلنا للبيع، فاشتراه هو وعاد إلى هنا ليمنّ عليّ ببعض الفُتات وعرض عليّ عملاً في منزلنا القديم. عجباً، كم كرهته عندئذ! ولكنني لم أُظهر عواطفي هذه.

وصمتت برهة ثم عادت فاستطردت حديثها قائلة: في أول الأمر فكّرت في قتله، وبدأت أقرأ كتباً في علم الإجرام في المكتبة، ومنها تعلّمت كيف يمكنني أن أُدير المفتاح في قفل الباب من الخارج بواسطة كمّاشة كما فعلت في باب غرفة الفتاة آمي، واستبدال الزجاجات، يا إلهي! لقد كانت تلك الفتاة تغطّ في نومها غطيطاً عميقاً. آه! تُرى ماذا كنت أقول؟

وبصوت خافت قالت بريدجت: تقولين إنك فكرت في قتله في بادئ الأمر.

- أجل، ولكن ما كان ذلك ليرضيني. كان قتله هو الشيء العادي الذي يراودني، ولكنه كان يستحق أكثر من ذلك. ثم راودتني فكرة تعذيبه بسبب سلسلة من الجرائم التي لم يرتكبها، يجب أن يُعتبَر قاتلاً، يجب أن يُشنَق بسبب الجرائم التي اقترفتها أنا، أو أن يعتبر مجنوناً وتُقيّد حريته ويُسجن طوال حياته وهو الأفضل.

ثم ضحكت ضحكة خبيثة غريبة في حين كانت عيناها تبرقان بريقاً مخيفاً ثم قالت: وكما قلت لك لقد قرأت كُتباً كثيرة في علم الإجرام، لذا كان عليّ أن أنتقي ضحاياي لأنني لم أُرِد أن تحوم الشبهات من حوله في أول الأمر. وكنت أهوى القتل، وكرهت تلك المرأة ليديا هورثون لأنها وصفتني بالعانس العجوز، لذا سُررت عندما تشاجرَت مع جوردون، وأردت أن أضرب عصفورين بحجر واحد، فكنت أضع لها الزرنيخ في الشاي الذي تشربه وأنا أجلس بالقرب من فراشها ثم أخرج لأخبر الممرّضة بأن السيدة هورثون تشكو من مرارة العنب الذي يرسله إليها اللورد هوايتفيلد، ولكن الممرّضة الغبية لم تتردّد في تصديق ما كنت أقوله لها قطّ. ثم جاء الآخرون، فكنت كلما سمعت عن غضب جوردون على شخص منهم سهل عليّ أن أدبّر حادثة يموت بسببها ذلك الشخص، وكان هو على درجة كبيرة من الغباء جعلته يصدّقني عندما أخبرته بأن لديه ميزة عجيبة في أن كل من يعارضه يموت.

- ولكن كيف تمكنت من تدبير كل ذلك؟

- الأمر في منتهى البساطة ولا يحتاج إلا إلى التنظيم، فعندما فُصِلت آمي من خدمة اللورد استخدمتها عندي مباشرةً، وأعتقد أن فكرة استخدام طلاء القبعات كانت فكرة نيّرة ولا سيما أن الباب كان مغلقاً من الداخل وكنت في مأمن من الشكّ لعدم وجود أي دافع عندي إلى قتلها. وكان قتل كارتر أسهل؛ فقد كان يسير فوق القنطرة والضباب يكسو المنطقة عندما دفعته بسرعة إلى النهر، كما أنني لا أنسى منظر وجه تومي عندما دفعته من النافذة.

وصمتت كأنها تسبح في ذكرياتها، فسألتها بريدجت بعد مدّة قائلة: وماذا عن الدكتور همبلبي؟ لا بدّ أن الأمر معه كان صعباً.

- أجل، ولكن أُذن الهرّة التي عندي كانت تمجّ صديداً، ثم افتعلت إصابة يد الدكتور همبلبي بمقص كان في يدي، وعندما صمّمت على أن أنظف الجرح وأضع الضِّمادات بنفسي لم يكُن يعرف أن تلك الضِّمادات ملوّثة بصديد من أُذن الهرّ. لقد كانت خبطة عشواء، ولكنها نجحت لا سيما أن الهرّة لم تكُن ملكي وقتئذ بل كانت ملك لافينيا بينكرتون.

وصمتت لحظة عبس فيها وجهها ثم قالت: لقد اقتربت لافينيا بينكرتون من الحقيقة؛ فهي التي وجدت تومي بعد وقوعه من النافذة، وهي التي فاجأتني في أثناء ذلك الشجار بين جوردون والدكتور همبلبي وأنا أنظر دون حذر إلى همبلبي وأفكّر في أفضل طريقة للتخلّص منه. وعلمت أنها قد كشفت سري، وكنت أعرف أنها لا تستطيع إثبات شيء ضدي ولكنني خِفت من أن يصدّقها أحد رجال اسكتلنديارد، لذا تبعتها في ذلك القطار. وكانت تعبر الطريق في لندن في شارع هوايتهول عندما رأيت سيارة مقبلة بسرعة فدفعتها بشدّة أمامها دون أن يراني أحد، ثم ذكرت لامرأة أنني شاهدت رقم السيارة التي صدمتها وأخبرتها برقم سيارة هوايتفيلد آملة في أن تذكر ذلك لرجال الشرطة. ومن حسن الحظّ أن السيارة لم تتوقّف، وأظن أن سائقها كان خائفاً بسبب قيادته لها دون أمر من صاحبها. أما الحادث الأخير مع ريفرز فقد كان من حسن حظي أنني قُدت لوك إلى مشاهدة شجار جوردون مع سائقه. آه! كم كان من الصعب جعل لوك يشكّ في جوردون، ولكن بعد موت ريفرز لم يكُن يوجد أي مفرّ من أن يشكّ فيه.

ثم قامت من مكانها واقتربت من بريدجت وقالت بصوت خافت: لقد تركني جوردون وكان سيتزوج بك. لقد عشت حياتي في

يأس إذ لم يكُن لديّ أي شيء، أي شيء على الإطلاق.

ثم انحنت فوق بريدجت ولمع في يدها نصل السكين، ولكن في لمح البصر وبكل شبابها وقوّتها قفزت بريدجت من مكانها وكأنها نمرة شرسة، ثم ارتمت بكل قوتها على المرأة الأخرى لتلقيها على ظهرها وتقبض على رسغها الأيمن، فأُخذت هونوريا وينفليت بالمفاجأة فارتمت على ظهرها. كانت بريدجت هي الأصغر والأقوى، ولكن جنون الثانية أضاف إليها عاملاً تغلّب على العاملَين الآخرَين، إذ بدأت تتعارك وكأنها شبه شيطان. وبعد شدّ وجذب تغلّبت المرأة المجنونة على الفتاة فأخذت تصرخ قائلة: لوك أنقذني، أنقذني.

ولكن لم يكُن لديها أي أمل في أن ينقذها أحدٌ وسط تلك الحقول الخالية المترامية، وما هي إلا هّنيهة حتى شعرت بيدي هونوريا تطبقان على عنقها ليحبسا آخِر صرخة أرادت أن تطلقها.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

كان لوك مستعداً لمغادرة الفندق عندما رأى سيدة تسرع في الطريق وتتوقّف فجأة عندما وقع بصرها عليه، ثم قالت: سيد فيتز ويليام.

- السيدة همبلبي؟!

ثم تقدّم إليها محيياً، فسألته قائلة: لقد ظننتك قد غادرتنا؟

- لا، لقد استبدلت مكان إقامتي فقط، أنا أُقيم هنا الآن.

- وماذا عن بريدجت؟ لقد سمعت أنها غادرت آسن مانور.

- نعم.

فتنهدت السيدة همبلبي بارتياح وقالت: كم أنا سعيدة لأنها غادرت ويتشوود!

- ليس الأمر كذلك، فهي ما تزال هنا. إنها تقيم مع الآنسة وينفليت.

فتراجعت السيدة همبلبي إلى الوراء خطوة ثم قالت: تقيم مع هونوريا وينفليت؟! لماذا؟

- لقد كانت الآنسة وينفليت كريمة حين أرادت أن تكون ضيفة عليها لبضعة أيام.

فاضطربت السيدة همبلبي، ثم وضعت يدها على ذراع لوك وقالت: أنا أعرف أنه لا حق لي في قول ذلك يا سيد فيتز ويليام، وقد مررت بأحزان كبيرة في الوقت الأخير حتى خُيّل إليّ أنني أشعر بأشياء غريبة.

- مثل ماذا؟

- الشعور بالشرّ، الشر الموجود هنا في ويتشوود، تلك المرأة وراء كل ذلك الشرّ.

- أية امرأة؟

أنا متأكدة من أن هونوريا وينفليت امرأة شريرة جداً. آه، أراك لا تصدقني، ولكن لم يصدّق أحدٌ لافينيا بينكرتون أيضاً. كلانا كان يشعر بذلك، وأظنها كانت تعرف أكثر ممّا أعرفه أنا. أراك ما زلت لا تصدقني؟ أستودعك الله وأرجو أن تنسى ما قلته لك الآن.

ثم تركته مسرعة وهو ما يزال يفكّر في السبب الذي يدعو السيدة همبلبي إلى وصف الآنسة وينفليت بالمرأة الشريرة. ولم تمرّ دقائق حتى شعر بالحاجة الملحّة إلى أن يذهب ليرى بريدجت فاستقل سيارته، وعندما وصل إلى المنزل أخبرته الخادمة إميلي بأن السيدتين خرجتا واتجهتا نحو الحقول منذ مدّة، فأسرع في ذلك الاتجاه وهو لا يدري إلى أين يتجه، ولكن لم يلبث أن وصل إلى سمعه صوت صرخة خافتة تقول: "لوك أنقذني، أنقذني..." فاتجه ناحية الصوت بسرعة عمياء في الوقت المناسب ليجذب يدَي امرأة مجنونة من حول عنق ضحيّتها ويقبض عليها بيدين حديديتين وهي

تصرخ وتُرغي وتزبد حتى اعترتها رعشة فقدت بعدها الوعي بين ذراعيه.

* * *

جلس اللورد هوايتفيلد وهو لا يكاد يصدّق ما سمع ويردّد قائلاً: ولكنني لا يمكنني أن أفهم ذلك، لا أستطيع ذلك.

كان يجلس أمامه أحد رجال شرطة اسكتلنديارد ولوك وبريدجت بعد أن قصّوا عليه قصّة الآنسة وينفليت وكيف أنها قامت بارتكاب تلك الجرائم كلها بغرض التخلص من اللورد هوايتفيلد، وكيف أنها بنت خططها عقب تركه إياها وفسخ خطبتهما، وكيف أنها ذكرت أن غريزة القتل دفينة في نفسه منذ دقّ عنق طائر الكناريا...

وهنا قاطعهم اللورد هوايتفيلد بقوله: لكن الذي فسخ الخطبة أنا وليست هونوريا لأنها هي التي قصمت عنق الطائر!

وبعد جلاء الأمور سألت بريدجت اللورد هوايتفيلد أن يصفح عنها هي ولوك لأن كلاً منهما أحب الآخَر، فقال لها: أنا لا أحمل أية ضغينة.

وخرج لوك وبريدجت من آسن مانور واتجها إلى سيارة لوك حيث جلسا فيها بتأمّل قبل أن يعودا بها إلى مقرّهما.

وبعد لحظات سألت بريدجت لوك قائلة: ولكن ماذا عن الدم الذي شاهدته على يدي ألزورثي؟ وبماذا تفسّره؟

- قد يكون ذلك دمَ ديك قام هو وزملاؤه بذبحه بحسب ما تمليه عليهم شعائرهم.

- لعل الأمر كذلك، ولكن أخبرني بصراحة: هل تحبني حقاً؟

ونظر كل منهما إلى الآخَر نظرة فيها خجل وحياء كطفلين صغيرين، وصمتا لمدّة طويلة قطعها لوك بقوله: لقد كنا على شفا حفرة من الموت في أوقات طويلة، وقد أصبح ذلك كله من الماضي. والآن سنبدأ حياة جديدة.

* * *

(تمت)